GERMANUS

(BAYNA FIKRAYN)

(Arab)
PJ7538
.G45xB3

(Arab)PJ7538.G45xB3
Germanus, Gyula
(Bayna fikrayn)

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 062241730

١٩٢٢ كانون الأول ٨
٥٠

المستشرق المجري
عبد الكريم جرمانوس

Germanos

بين فكرين ..

الأثر الشعبي المبدع في النتاج الفكري

أعده واشرف على طبعه

صلاح رهني

8857

Germanus, Gyula

المستشرق المجري
عبد الكريم جرمانوس

بين فكرين ..

الأثر الشعبي المبدع في النتاج الفكري

أعده واشرف على طبعه

صلاح دهني

مطابع فتى العرب — دمشق

(RECAP)
PJ 7538
.G45xB3

الاستاذ جرمانوس في مكتبه

بين يدي الكتاب

لم أكن أعرف المستشرق المجري الكبير عبد الكريم جرمانوس قبل السنة الفائتة . كنت قد قرأت عنه نتفاً صغيرة في بعض الصحف الشامية ، دون أن أقرأ له بالذات . ثم كان ان تداعينا ، بعض الاصدقاء وأنا ، الى استقباله في مطار دمشق في العام الفائت ، فوجدنا أنفسنا على حين غرة أمام انسان كبير قد تجاوز السبعين يفرض الاحترام من النظرة الأولى .

ولم يكن قد مضى على وصوله دقائق معدودات عندما بدأ يحدثنا ، إذ خلونا به ، عن أولى ذكرياته عن دمشق . وأثار استغرابنا عندما اخبرنا أن تلك الذكريات ترتقي إلى أوائل هذا القرن ! وحدثنا عن الأدب العربي واللغة العربية حديث المحب المتعمق ، وكان في صوته لكنة أجنبية أخذ يعتذر عنها ببعد الشقة وطول مفارقة أرض العروبة . وهز مشاعرنا عندما قال لنا إنه كثيراً ماينفرد بنفسه في مكتبه

ببودابست وبروح يطلق لسانه بالعربية لئلا ينسى ويثقل نطقه للضاد والحاء والعين والكلام عامة .

هكذا تعرفت إلى العالم العلامة أول ماتعرفت . ثم إنني رحت أتتبع تاريخ حياته وأعماله في خدمة اللغات الشرقية عامة والعربية خاصة . فعرفت أشياء كثيرة زادتني تقديراً للرجل وإعجاباً به .

فهو قد ولد في عام ١٨٨٤ في بودابست ، أجمل مدن أوربا ، وملتقى أغنيائها قبل الحرب الأخيرة ، وقد تعلق ، وهو طالب في الجامعة مايزال ، بلغات الشرق الأدنى وتاريخه. وتابع دراسته بعد عام ١٩٠٥ في جامعتي استنبول ثم فيينا . وأمضى بعدها فترة مديدة في لندن حيث عكف على دراسة النصوص التركية القديمة في المتحف البريطاني . وعاد عام ١٩١٢ استاذاً للدراسات الشرقية في اكاديمية بودابست حيث علم تاريخ الفكر الاسلامي واللغتين العربية والتركية .

ثم إن شاعر الهند الأكبر ، رابندرانات طاغور ، دعاه إلى الهند ، حيث درّس من عام ١٩٢٩ حتى ١٩٣٢ في جامعات دلهي ولاهور وحيدر آباد . وهناك نُشر كتاباه « الحركات الحديثة في الاسلام » و « الأدب التركي الجديد » والعديد من آثاره العلمية . وجاء من بعد الى القاهرة حيث أنهى دراسته في الجامعة الأزهرية ثم قصد مكة حاجا ، وكتب عن حجته كتاباً اسماه : « الله أكبر » نشر في عدة لغات .

وقد أجرى تحريات علمية واسعة بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٤١ في القاهرة والمملكة العربية السعودية ، نشرت نتائجها في مجلدين: « شوائع الأدب العربي » و « دراسات في التركيبات اللغوية العربية » . وفي ربيـــع ١٩٤١ عاد يقضي بضعة اشهر في القاهرة والاسكندرية وسافر من بعدها الى دمشق .

تلك لمحة عن حياة عالمنا الكبير ، وهي قد تكون سريعة موجزة ، ولـكن حياته كما نلاحظ من خلالها ، حافلة بقيم الاعمال وجليل الآثار .

فاذا أتينا إلى مابين دفتي هـذا الكتاب من دراسات ، سبق ان حاضر بها في مصر والشام ، لاحظنا أنها تنقسم ألى قسمين : قسم يتعلق بالفكر العربي ، وآخر بالفكر المجري . ولن أعرض هنا للقسمين أو لبعضها بالكلام ، ولكني ساكتفي بأن ألفت النظر إلى صدق الاساس الذي أقيمت عليه هـذه الدراسات . فهي تصدر عن الفكرة القائلة : إن التطور في كل لغة وكل أدب وكل حياة اجتماعية إنما ينبع من أوسع فئات الناس الذين يتكلمون تلك اللغة ويولد بينهم ذاك الأدب ويعيشون تلك الحياة ؛ فلا المجامع اللغوية ولا الهيئات الادبية ولا الزعماء السياسيون هم الذين يفرضون أنواعاً من التطور في هذا الاتجاه أو ذاك ، بل إن الشعب هو مصدر كل تطور خلاق يكتب له البقاء والنمو .

وانما كان عنوان الكتاب « بين فكرين » لما بين اليقظة

التي رافقت نمو الادب العربي الحديث وصعود الفكر المجري من تقارب وتشابه ، ولما يمكن لأحد الفكرين ان يفيد من تجارب الآخر ، إن في الميدان اللغوي البحت أو في ضروب الانتاج الأدبي ، وهذا مالا يفتأ الاستاذ المستشرق الكبير يذكر به قراءه في كل مناسبة .

دمشق : حزيران ١٩٥٦

صلاح دهني

في الفكر العربي

انني لاقف بين يدي الادب العربي في احترام كبير وسرور عظيم ، وشعوري بالاحترام يرجع الى ما أكنه من حب خالص نحو المسلمين اخواني ولغتهم المجيدة . اما سروري ، ففي غير حاجة الى شرح وايضاح : ذلك أني المجري الوحيد الذي اتيحت له فرصة التحدث باللغة العربية الى جمهور من القراء العرب ، بل انني المجري الوحيد الذي أدى فريضة الحج الى بيت الله الحرام .

فخلافا لبعض الامم الاوربية الاخرى ، لانهدف نحن معشر المجريين ، الى استعمار الشعوب الاخرى ، ونزعتنا الى السلام تجعلنا نتجه بانظارنا الى الشرق ، باعين ملؤها الحنين ، شأننا في ذلك شأن أسلافنا الاقدمين ، الذين زاروا الشرق في العصور الخالية ، فجميع المجريين ، صغاراً وكباراً ، مازالوا تواقين لرؤية الشرق الجميل ، ذي الجو الشاعري المليء بالاسرار والغموض . فالدراسات الشرقية المجرية مستمدة من هذا الحنين ؛ وأكثر المستشرقين المجريين تبحروا في اللغتين التركية والتترية ، على أن يكتشفوا وجوه الشبه بين

لهجات هاتين اللغتين ، واللهجات المجرية . وقد أدت هذه الدراسات الى نتائج جليلة الأثر . مثال ذلك ان « كروشي جوما » صنف أول معجم للغة « تيبت » منذ قرن ، وما زال هذا المعجم محتفظاً بقيمته وطرافته . وألقت مؤلفات « أرمين فامبيري » ضوءاً ساطعاً على لغات آسيا الوسطى القديمة المجهولة . وجمع « إيجناس كونوش » الادب الشعبي التركي ، فاتخذ بحثه أساساً للغة التركية المجددة . ويعتبر المستشرق المجري « ايجناس جولدزيهر » من أئمة الدراسات العربية والاسلامية ، فما زالت مؤلفاته عن الحديث واصول الدين مرجعاً لاغنى عنه لكل طالب علم .

لقد كنت أحد التلاميذ المتواضعين للاستاذين الكبيرين فامبيري ، وجولدزيهر ، فورثت عنهما تعلقهما بالشرق الاسلامي . ولم يُقصر اهتمامي على كشف النقاب عن التراث المجري العريق ، بل أردت أن أتعمق في التنقيب ، حتى أصل الى روح الشعوب الاسلامية وقلبها النابض . ولما كانت روح الشعوب الاسلامية وقلبها مرتبطين إرتباطاً وثيقاً بالدين الاسلامي ـ باعتباره آخر الاديان المنزلة الى بني الانسان ـ فقد اعتنقت الاسلام علناً في مسجد دلهي الاكبر بالهند، كما أديت فريضة الحج في مكة المكرمة ، وزرت قبر الرسول في المدينة المنورة . وكنت دائماً موضع حفاوة وتكريم من قبل اخواني المسلمين ، فبادلتهم حباً بحب . والى جانب روح الشعوب الاسلامية وقلبها ، حفز العقل الاسلامي المؤمنين برسالة الاسلام على انتاج روائع عظيمة الشأن في الأدب والحضارة والثقافة ، ستظل على مرّ

الاجيال موضع فخار للجنس البشري بأسره .

قال « رانكه » المؤرخ الالماني : «ان الثقافة الانسانية مستندة الى لغتين اتباعيتين (كلاسيكيتين) : اللاتينية والعربية . وبينما اشتقت اللغات الغربية من اللاتينية ، فقد نفثت اللغة العربية في الشرق روحا فتية ، ولا يمكن فهم المصنفات الادبية الفارسية أو التركية ، بدون الرجوع الى الكلمات العربية ، وخاصة ان وحي القرآن الكريم الذي لايجارى ، يعد بلا مراء اساس العقيدة الانسانية والثقافة البشرية . »

لاأستطيع الاسهاب في الاشارة بالروائع الادبية التي انتجتها اللغة العربية هذه الروائع الممتدة من امرىء القيس الى ابن خلدون . فهي معروفة لكم جميعاً . ولست أزمع عرض أفكار الشعراء والكتاب والعلماء والفلاسفة الاقدمين . فالذي أرمي اليه هو مجرد ابداء وجهة نظر عالم مجري ، من غير الناطقين بالضاد ، وممن تعلموا العربية في الكتب . وموقفي شبيه بموقف رجل ينظر الى صرح شامخ من جانب خاص ، لم تتح رؤيته لأي انسان ، أي أنه ينظر نظرة الاجنبي الصديق العطوف . فنحن معشر المقيمين خارج العالم العربي ، قد نخطىء التقدير لما يحدث داخله ، بيد أن هذا التقدير ـ وان كان مخطئاً ـ ربما ساعد في إلقاء بعض الضوء على امور لم يتجه لها اهتمام من يعيشون في بيئتهم المعتادة . لذلك ، أرجو أن تحمل ملاحظاتي على هذا المحمل .

وأهم المميزات التي تلفت النظر في **اللغة العربية** هي ازدواجها .

فالمعروف ان اللغات الثقافيـة تمتاز بالتباين بين التعبيرات الادبية وتعبيرات المحادثة . بل هنـاك طبقات مختلفة في لغة الادب نفسها ، من حيث التعبير . مثال ذلك ان عامة الشعب من المتكلمين بلغتهم الاصلية ، لايفهمون جلياً لغة المؤلفات العلمية او الطبية او الفلسفية ويستخدم الادب المنظوم كلمات تعبر عن مشاعر دقيقـة ، قلّما نعثر عليها في الادب المنثور . والادب المنظوم يستمد مفرداته من اعماق نفس الشاعر ، ومن خياله الخصيب . ولما كانت القصيدة هي طريقة التعبير عن الحقائق الازلية والمشاعر الخالدة ، فقد ابتكرت لنفسها اسلوبا خاصاً ، تحررت فيه من القيود التي لايستطيـع الادب المنثور أن يحيد عنها قيد أنملة .

والى جانب هذه المميزات العامة ، نرى في بعض اللغات ظواهر ناشئة عن تطورها الخاص . فقد كان للاسلام قوة تحويل جارفـة ، أثرت في الشعوب التي اعتنقتـه حديثاً . وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيـال هذه الشعوب ، فاقتبست منه مئات بل آلافا من الكلمات العربية ، ازدانت بها لغاتهـا الاصلية ، فازدادت روعة وبهاء . والمؤلفات الادبية ، **باللغة الفارسية** التي كتبت غداة اعتناق الفرس للاسلام ، كملحمة الشاهنامه وقصائد الرودغي لاتحوي الا النزر اليسير من الكلمات العربية ، وجلها يتعلق بالمعارف الدينيـة ولكن ، مع مضي الزمن ، أخذت الاصول العربية تنتقل الى اللغة الفارسية الادبية ، وبنسبة أقل الى اللغة الدارجة . وفي أثناء العصور المـاضية ، أصبح عدد الكلمات العربية في المؤلفات الادبية الفارسية

يربو على تلك المشتقة من اصول فارسية . بل اصبح يجوز استعمال أية كلمة عربية في الادب الفارسي . لكن عامة الشعب من الاميين لم يكونوا يفقهون كلمة واحدة من هذه اللغة .

وما قيل عن اللغة الفارسية ، ينطبق على اللغة التركية مع فارق واحد ، هو ان **اللغة التركية** لم تقتصر على الاقتباس من العربية فحسب ، بل ومن الفارسية ايضاً . فالادب التركي المنظوم استمد تعبيراته من الفارسية أكثر من العربية ، بينما لجأ الادب المنثور الى الكلمات المشتقة من اصول عربية أكثر من الفارسية ، ذلك لأن الشعراء الاتراك تتلمذوا غالباً على اساتذة من الفرس ، لا على العرب مباشرة . وكانت لغة الكلام تختلف اختلافا تاما بين الطبقة المثقفة وعامة الشعوب من الاميين . بيد ان هنالك امراً جديراً بالملاحظة ، وهو ان الاختلاف بين اللهجتين كان مقتصراً على الالفاظ المستعملة ولم يمس القواعد النحوية . فقد ظلت قواعد اللغة الفارسية الحديثة بلا تغيير او تبديل خلال اجيال عديدة ، شأنها في ذلك شأن قواعد اللغة التركية .

فالفرس والاتراك المثقفون الذين كانوا يتكلمون ويكتبون اللغة الفصحى لم يحيدوا قيد انملة عن ادق قواعد لغتهم الاصلية فقواعد اللغة الفارسية الحديثة سهلة ، ولا تشمل عدداً كبيراً من صيغ الافعال . اما قواعد اللغة التركية ، فهي تشمل زمنين للحال ، وأربعة أزمنة للماضي الغير التام ، وزمنين للماضي التام ، وزمنين للماضي البعيد (أي السابق لزمن ماض آخر) ، وزمنين للمستقبل ،

أي اثنى عشر زمناً مستقلا يُحوَّل كل منها الى صيغ النفي والاستحالة والاحتمال ، أي حوالي خمسين شكلا في الصيغة الاخبارية وحدها ، هذا الى جانب الصيغ الاخرى ، مما يصل بعدد الاشكال الى الثمانين او أكثر . وجميع الاميين من الاتراك يستعملون هذه الاشكال في لغة الكلام ، دون أن يدرسوا قواعدها ؛ لكنهم يدركون بغريزتهم الفوارق المميزة بين الاشكال المختلفة . ويُجمل القول ان التركي المثقف والتركي العامي ـ الذي يتكلم باللغة التي كانت تُسمى فيما مضى : « قابا تركجة » ـ كانا يحترمان جميع قواعد اللغة احتراما عظيما .

ولنتجه الآن بنظرة عابرة الى **اللغات الآرية** . فهي منحدرة اصلا من اللغة الهندية السانسكريتية ، ولذلك تسمى أحيانا اللغة الهندية الآرية . ولهذه العائلة ميزة خاصة جديرة بالملاحظة ، الا وهي فقرها بالافعال . وقد يبدو هذا الرأي لأول وهلة غير منطقي ، فيتساءل البعض : كيف تستطيع تلك اللغات الآرية ان تعبر عن جميع أساليب الافعال ؟ انهم يستطيعون ذلك ، ولكن باستعمال حروف مستقلة ، لكل منها صوت وتكوين مختلف ، تربط بعضها ببعض بوساطة مقاطع شتى ، تكتب امام اصل الفعل .

وقد امتازت **اللغتان اليونانية واللاتينية** القديمتان بمعين لا ينضب من الكلمات ، اشتقت منها جميع المصطلحات العلمية في الحياة الحديثة . بل ان اللغة العربية نفسها لجأت إليها ، وهو أمر لا أظنه ضروريا . فكلمات : دبلوماسية وديموقراطية وارستقراطية وسينما الخ ... يمكن التعبير عنها بكلمات عربية : كسياسي وشعبي وعظامي

وصور متحركة الخ ..

ولنورد الآن مثلا . فكلمة نفخ باللاتينية « spirare » قد اضيف أمامها مقطع « con » فاصبحت « conspirary » ومعناها « مؤامرة ».واذا اضيف أمامها مقطع« in »اصبحت «inspiration» ومعناها « إلهـــام » . واذا اضيف أمامها مقطع « ad » اصبحت « aspiration » . ومعناها «طمح» . هكذا يمكن استنباط كلمات كثيرة منطقياً من كلمة واحدة ، كالاشتقاق في اللغات الساميـة ، ولكن بطريقة مخالفة تماماً .

ونلاحظ نفس هذا الفقر في **اللغة الالمانية** ، حيث يضطر الى اضافة مقاطـع مساعدة لايجـاد معانٍ جديدة ، والخلاف بين اللغات المنحدرة من اصل واحد يرجـع الى تغير البيئة . فهو اذاً عامل مضاف الى عوامل طبيعية (فيزيولوجية) . إذ كثيراً ما ينطق الاحفاد بعض الاصوات بطريقة مخالفة لما فعل اجدادهم . وقد يتغير النطق الى مدى أبعد ، اذا وجد عامل حيوي (بيولوجي) مؤثر في العامل الطبيعي ، كاختلاط العناصر والشعوب بعضها ببعض .

واذا حلّلنا اسباب اختلاف اللغات ، لوصلنا الى نتائج طريفة . فاللغات الهندية الآرية ، ذات الفروع المتشعبة ، تختلف بعضها عن بعض ، الى حد يجعلها تبدو لأول وهلة غريبة بعضها عن بعض . فاللغة اليونانية ، على كراهيتها للحروف الساكنة المركبة ، واللغات الصقلبية ، ذات الحروف الساكنة المزدوجة والمثلثة ، منحدرة من نفس الاصول الآريـة . واللغة الايطالية ذات النغمات الموسيقية ،

واللغة الالبانية المحشوة ، ابنتا عمومة . ومن اليسير علينا كشف هذه العلاقة في كلتي « Inpret » الالبانية و « Imperator » اللاتينية .

فما هو السبب الذي جعل تلك اللغات تسير في هذه الطرق المتباينة ؟ ان العلم الحديث يحاول دائماً كشف الاسباب المادية ايضاً، فاذا عرفنا الظروف المادية التي كانت تعيش فيها الشعوب القديمة ، لاستطعنا تفسير هذه الظاهرة. فالاكتشافات الفنية ساعدت الانسانية، فانقذتها من المضار الناشئة عن الطبيعة . لقد كانت الجماعات البدائية اكثر تعرضاً لقوى الطبيعة ، مما نحن عليه الآن ، حيث نتمتع بالتدفئة المكيفة وبالمذياع . واللغات التي انفصلت عن اصلها المشترك في العصور القديمة ، ما لبثت ان منيت بتغيرات اساسية ، نشأت عنها لهجات متباينة . لقد اصدر دانيال وبستر ، في معجمه العظيم منذ مائة سنة ، حكمه على اللغة الانجليزية . فتنبأ ان اللغة الانجليزية في امريكا ستنفصل عن امها — اي اللغة الانجليزية — الى حد ان الانجليز والامريكيين سيكتبون ويتكلمون لغتين مختلفتين ، فلا يستطيعون التفاهم . بيد ان هذا التنبؤ كان مخطئاً . ففي خلال ذلك ، اخترع البخار والكهرباء والراديو ، وتقدمت الصحافة فربطت بميثاق من حديد ضفتي المحيط الاطلسي ، وما زال الشعبان متفاهمين كسابق عهدهما . نعم ان بينها بعض الفوارق في النطق والاسلوب ، لكنها النتيجة الطبيعية للتطور التاريخي . ولولا النتائج الباهرة التي ادت اليها المخترعات الفنية ، لانفصلت امريكا عن انجلترا بمعدل الف

سنة على الاقل ، ولتحولت بنوءة وبستر الى حقيقة واقعة . عندئذ كان اللغويون وحدهم سيستطيعون اقامة الدليل على ان اللهجتين كانتا متحدتين يوماً ما .

عندما اضطرت الشعوب الى الهجرة بسبب التغيرات الجغرافية التي حدثت على وجه البسيطة ، تفرق شملها ، وتطورت لغاتها في اتجاهات مختلفة . وهذه التغيرات هي التي انقذ منها النبي نوح عليه السلام الانسانية ، كما انقذ منها الحيوانات ، سواء أكانت نافعة ام ضارة . وهناك مثلاً قطع سد مأرب . والى جانب هذه الكوارث ، وقعت حوادث اخرى ، كان لهـــا آثار مادية ، اتجهت بالانسانية اتجاها مخالفاً للاول .

فالشعوب القديمة التي كانت تتكلم اللغات السامية كالبابليين ، هـاجرت من موطنها الاصلي في الجزيرة العربية ، واستقرت في سهول بين النهرين الخصيبة ، اي في العراق . فهذه المنطقة الخصبة ، الـكائنة بين نهرين ، قـد تجردت من الصخور والغابات ، لذلك ، ابتكر مستوطنوها مواد بناء تحل محل الاحجار والاخشاب ، وهي الآجر المحروق بوساطة حرارة الشمس . فقطعة الصلصال المربعة الزوايا هذه ، هي التي ادت الى ازدهار حضارة ، حذت حذوهـا الشعوب المجاورة ، وما زالت آثارها باقية حتى الآن . واخترع البابليون الساعة المائية ، وكان نظامهم الرياضي مؤسساً على رقم «٦» وقد جاء في « العهد القديم » ان الله خلق العالم في ستة ايام ، إذ ان العبريين تعلموا الرياضيات من البابليين . وقسم اليوم الى اربعة امثال

رقم « ٦ » و « الدستة » ضعف الستة ، والساعة مقسمة الى ستين دقيقة ، والدائرة ذات ٣٦٠ درجة هي ستة امثال رقم « ٦٠ ».

ليس عسيراً بناء منزل من جذوع الاشجار ، أو تركيب كوخ من الاحجار الفخمة الغير المهذبة . لكن تشييد منزل من آلاف قوالب الآجر الصغيرة الحجم يتطلب خطة مرسومة . ورسم هذه الخطة يفترض الالمام بعلم الهندسة وبقوانين الالتحام والجاذبية. فطبيعة مواد البناء أدت بالبابليين الى استنباط هـذه القوانين . وفيضانات الانهر الموسمية ، المطابقة من حيث الزمان لبعض الابراج السماوية ، حملت البابليين على دراسة الفلك ، والعلوم المتصله به ، فتوسعت ثقافتهم في الرياضيات .

وقد أدت طبيعة مواد البناء ايضاً ، إلى نتائج اجتماعية بعيدة المدى . فالشعوب التي تشيد منازلها البدائية بقطع الخشب الضخمة ، أو التي تلجأ إلى الكهوف الصخرية ، يسهل عليها هجر موطنها اذا هاجمها الاعداء . فحياتها في الغابات تجعل مواد البنـاء ، في متناول يدها ، فما عليها الا ان تنسحب صوب مناطق اخرى ، حيث تستأنف بناء اكواخها . وأمثال هذه الشعوب لا تتعلق بمنازلها تعلقاً وثيقاً ، وهي ترحل بسهولة وتتشتت في مناطق شاسعة .

ليست هذه حال البابليين ، بناة المنازل بالآجر . فهم يعنون عناية فائقة بتشييد مساكنهم ، متكبدين المشاق والمتاعب في سبيل ذلك ، فاذا هاجمهم الاعداء ، دافعوا عن دورهم ، بكل ما اوتوا من شجاعـة واستماتة ، والدفاع يتطلب نظاماً اجتماعياً ، حيث يتولى

البعض الامر ويخضع البعض لذوي السلطات . هكذا تركزت سلطة الدولة . اما الشعوب الرحل التي تغير موطنها بسهولة ، فانها لم تكوّن دولة ذات حكومة مركزية ، ونذكر منها على سبيل المثال هنود امريكا الحمر . ومن الوجهة التاريخية ، كان البابليون والاشوريون ، وما زالوا ، نموذجاً لنظام الحكم المطلق « الدكتاتوري » .

لقد هاجر الآريون الى مناطق واسعة ، فانتشروا من آسيا الوسطى عبر الهند ، ثم امتدوا إلى شواطىء المحيط الاطلسي . وانحدرت من اصول اللغة الآرية ، عدة لهجات شقيقة لا يستطيع التمييز بينها الا اللغويون . اما اللغات السامية كالبابلية والاشورية والآرامية والكلدانية والعربية ، فقد ظلت اكثر تجانساً واكثر تشابهاً بعضها ببعض ، نظراً لضيق توسعها الجغرافي . لقد احتفظت اللغات السامية الى يومنا هذا بتركيبها الثلاثي . كما احتفظت بصيغ اشتقاقها الجبرية ، فاصبحت اكثر اللغات محافظة ، بالنسبة إلى سائر عائلات اللغات . فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع فهم كلمة واحدة من اللهجة التي كان يتحدث بها اجداده منذ الف سنة . اما اللغة العربية ، فقد هزمت العواصف التي لاقتها خلال الف وخمسمائة سنة ، وظلت قائمة امامنا كالصرح الشامخ ، غنيةً بآدابها الرفيعة وفي مقدمتها لغة القرآن الكريم .

كان العرب في الجاهلية متفرقين في قبائل تفخر كل منها بعراقتها ، وتتحدث كل منها بلهجتها الخاصة . لكن لغة القرآن

الكريم والنظام السياسي الديني الاسلامي قد ادمجا العرب في امة واحدة ، تتكلم بلغة واحدة ، وكان التماسك الديني واللغوي الذي احدثه الاسلام قويا فعالا . ولقد حكم اليونان والفرس والرومان مصر ، دون أن تتغير ثقافياً . ولكن ما كاد العرب يظهرون في وادي النيل ، حتى تحول المصريون بقدرة قادر وبفعل الاسلام الى شعب متكلم باللغة العربية ، وحتى أصبحت مصر مركز الادب العربي ، وما زالت الى يومنا هذا أعظم بلاد في هذا المضمار .

لقد تبوأت اللغة العربية مركز الصدارة ، من عُمان شرقا الى المحيط الاطلسي غربا. بل ان الامم الاجنبية ذات الماضي العريق، قد اتخذت العربية لغة ، وانتجت روائع ادبية . وقد تعلم عامة الشعب اللغة العربية وتكلموا بها . لكنهم وقعوا تحت تأثير العوامل الطبيعية (الفيزيولوجية) الناشئة عن اصلهم الاجنبي . بل ان المراقبين من بني أميَّة قد أشاروا الى سير اللغة العربية الفصحى سيراً بطيئاً في طريق الفساد فحاولوا معالجة الامر ، بيد ان محاولاتهم ذهبت سدى . فمنذ اقدم العصور ، كانت العربية منقسمة الى لغتين : لغة التحدث ولغة الكتابة . وقد تأثرت كل منها بالاخرى فتقاربتا حيناً ، وتباعدتا حيناً ، وحاول النحاة في العصر العباسي انقاذ اللغة العربية ، وقد برَّ علماء فقه اللغة العرب زملاءهم العلمـــاء الغربيين ذكاء وبراعة . فالمسلَّم به ان مفكري الاسلام كانوا أساتذة الاوربيين في القرون الوسطى ، في مبادىء العلوم والطب والفلسفة ، لكن إتساع أفق علماء اللغة العرب لم ينوه إليه كثيراً ، رغم أنهم اكتشفوا منذ ألف

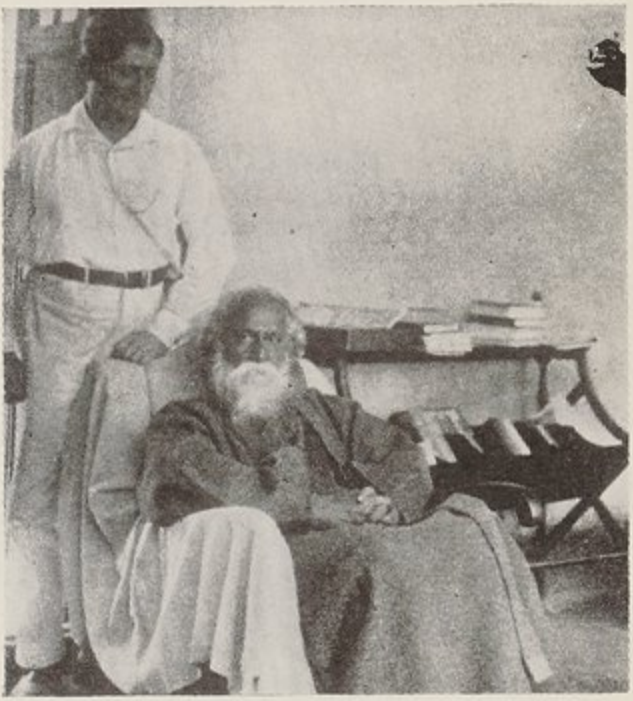

الاستاذ جرمانوس مع شاعر الهند الاكبر طاغور

سنة قواعد كان يجهلها الغربيون .

لم يكن الاختلاف بين لغة التحدث ولغة الكتابة مقصوراً على المفردات . فالمعروف ان مفردات اللغة تزيد طبيعياً ، نتيجة لاتساع الثقافة وتقدم الحضارة . وقد أفاض في هذا الموضوع أكثر العلماء قديماً وحديثاً ، فأشاروا الى العناصر الفارسية وغيرها من العناصر الاجنبية ، الدخيلة على اللغة العربية ، كما اشاروا الى تقدم الاسلوب طبيعياً جنباً الى جنب مع تطور المجتمع الانساني . وكان لفلسفة أريسطو اثرها الحتمي في الاسلوب العربي . وفي تجدد تكوين المجتمع ، نظراً لتغير البيئة ، وظهور المكتشفات الحديثة ، مما أدى الى ابتكار طرق جديدة ، فأصبح لزاماً استنباط تعبيرات لغوية ملائمة . فشعراء الجاهلية كانوا لايفهمون معنى عبارة « السكك الحديدية » ، شأنهم في ذلك شأن بدوي بن قطيبة الذي لم يفهم عبارة « أتهمز الفأرة ؟ » بدلا من « هل تقبض على الفأرة ؟ » ، فأجاب : « الهرة تهمزها » . وكلمة « الكهرباء » التي كانت تستعمل في الماضي بمعنى « العنبر » أصبحت تشير الى معنى غير مفهوم لاجدادنا منذ قرن واحد .

بيد ان فضل العلماء العرب الاقدمين كان أعمق أثراً من هذه الملاحظات السطحية .

فالجاحظ (المتوفى في سنة ٨٦٨) كشف في كتابه « البيان والتبيين » الاسباب الطبيعية (الفيزيولوجية) للتغيرات السماعية في الاصوات . إذ لاحظ أن النطق خاضع لتكوين الفم والحنجرة

وضبطها . ونتيجة ذلك ان الكلمة الواحدة تنطق بطريقة مختلفة ، بحسب اختلاف الشعوب . كما لاحظ ان هنالك عيوباً طبيعية في حواس الكلام ، من شأنها أن تؤثر في النطق ، وان اختلاف الاحوال الجوية يؤدي الى اختلاف في الكلمات .

وقد أورد على سبيل المثال قصة فكاهية طريفة عن واصل بن عطا مؤسس حركة المعتزلة . كان هذا العلامة الكبير ، لايستطيع نطق حرف الراء ، فكان يلفظها غيناً . لذلك عمد الى تجنب الكلمات ذات الراء ، وابدالها بمترادفات خالية منها . كأن يقول « ملحداً » بدلا من « كافر » ، و « قمحاً » أو « حنطة » بدلا من « بر » ونسب تفخيم الحروف كالقاف والصاد واللام والواو الى تشوه في الفم أو الى افناء اللثة . والاجانب ينطقون الاصوات بلكنة يتوارثها احفادهم ، عدا ما يضيفونه الى اللغة العربية من الكلمات الدخيلة . فهذه الاستنتاجات تدل على قوة ملاحظة جديرة بالاعجاب . ولست بحاجة الى الاشادة بمؤلفات الاصمعي وسيبويه ، والسجستاني ، وأبي معبد والكسائي وغيرهم ، للتدليل على أن العلماء العرب قد سبقوا علماء الغرب في هذا المضمار . بيد ان اللغة الدارجة كان لها حياة مستقلة عن حياة اللغة الفصحى ، رغم انها عاشتا معاً ، متوازيتين . وعلى حد معرفتي ، أعتقد أن العربية والصينية هما المثالان الوحيدان لحياة لغتين مميزتين جنباً الى جنب : احداهما على شفاه الشعب ، والاخرى على صفحات الكتب . والتمييز بينهما ليس مجرد اختلاف في المفردات ، كما هو الامر في اللغتين الفارسية والتركية .

بل هنالك هوة سحيقة تفصل بينهما ، هوة ناشئة عن اختلاف في التكوين النحوي ، واختلاف في جوهرهما ولبها . فاللغة الدارجة لهجة من لهجات اللغة الفصحى بل إن هنالك لهجات تسير في محاذاة اللغة الفصحى والتمييز بين هذه اللهجات ضئيل لايكاد يذكر . ويعتبر اللغويون هذه اللهجات ضربا من ضروب فساد اللغة الفصحى وانحطاطها . وذلك بحكم ان اللغة الفصحى هي وحدها التي كان يلقي بها شعراء الجاهلية قصائدهم في سوق عكاظ وغيرها ، وهي التي انتقلت الى بلاد الفرس والاندلس عن طريق القرآن الكريم الذى لايجارى في القوة والاعجاز ، ومما لاريب فيه أن فساد اللغة قد حدث ، على مرور الزمن ، من جراء العوامل السابق بيانها - أي التغييرات التاريخية ، والتأثيرات الجغرافية والطبيعية (الفيزيولوجية) فضلاً عن الأمية .

لكن هذه الاسباب وحدها لاتكفي لتبرير انحراف اللغة الدارجة عن اللغة الفصحى ، وفي رأيي ان هذه الظاهرة مرتبطة ارتباطا ذاتياً بالطبيعتين الثلاثية والجبرية لاسرة اللغات السامية . بل ان هاتين الطبعتين هما اللتان أدّتا الى هذا الانحراف ، وكان لهما اثر حاسم في ذلك . فالاشتقاق الجبري في اللغات السامية عامة وفي اللغة العربية خاصة قد ادى الى المحافظة على الثروة اللغوية وعلى مميزاتها القديمة ، فاتسع نطاقها اكثر من اللهجات الاخرى الشقيقة . فضلا عن ان الاشتقاق الجبري فرض على اللغات السامية عامة واللغة العربية خاصة صلابة حالت دون تغيرها وفسادها . وكما ان ٢×٢ في

العلوم الرياضية تساوي ٤ ، كذلك الاشكال الصلبة للغة العربية لاتحتمل اي تغيير جوهري ، دون أن يتطرق اليها الفساد . وفي رأيي ان هذه الطبيعة الذاتية التي طبعت عليها اللغة العربية ، جعلتها في مركز الانفراد والتباين ، وسط اللغات الاوربية . فالكتب والصحف في جميع انحاء العالم العربي مازالت حتى يومنا هذا محافظة على قواعد النحو الصلبة ، التي اقرها القرآن الكريم منذ نحو الف واربعمائة عام ، اما اللهجات الشعبية . فقد بسّطت قواعد النحو والتجويد ، واضافت تعبيرات اقليمية عذبة طريفة إلى مفرداتها . وبين الفينة والفينة ، اخذت اللغة الفصحى تقتبس دون ان تشعر ، عناصر من اللغة العامية ، فازدادت مفرداتها ، لكن الفارق الاساسي ظل قائماً بينها .

بيد ان هذه الظاهرة ليست ناشئة عن مشكلة لغوية ذات طابع علمي او نظري ؛ بل هي مشكلة متعلقة بمستقبل الثقافة العربية وربما كانت مشكلة ذات طابع سياسي . فاللغة العربية الفصحى تربط بين ابناء العروبة ، من مراكش غرباً الى جاوه شرقاً . وهي الرابطة القائمة بين جميع المسلمين المثقفين في انحاء العالم قاطبة . فاذا انفصمت هذه العروة ، فقد تنهار من جرائها الوحدة الثقافية ، بحكم استنادها الى دعامة اللغة .

وقد شوهدت مثل هذه الظاهرة في بعض اللغات الاوربية وبخاصة في اللغة الالمانية . كانت الشعوب الجرمانية مركبة من عدة قبائل : السيدابيون والساكسونيون والسويسريون والبافاريون

والبروسيون والوستفاليون الخ .. وكان كل شعب يتحدث بلهجته الخاصة . وكانت هذه اللهجات مختلفة بعضها عن بعض الى حد ان البروسي كان لايستطيع التفاهم مع البافاري ، والوستفالي لايستطيع التفاهم مع الساكسوني او السويسري . ونظراً الى ان اللغة الالمانية منحدرة من اسرة اللغات الآرية فانها لم تربط بالرباط الوثيق الجامد الذي ربطت به اللغة العربية ، بحكم تكوينها . فهذا الاعتبار — مضافا الى الاعتبارات السابقة — أحدث في هذه اللهجات تشعباً واسع المدى . والتمييز الذي فصل لغويا بين هذه القبائل لم يلبث ان فصل بينها سياسياً ايضاً . أما فكرة الوحدة الالمانية ، فهي وليدة القرن التاسع عشر ، ولم تتحقق الا في القرن العشرين وبخطوات بطيئة . وعندما قام مارتن لوثر بترجمة التوراة الى اللغة الالمانية الرسمية ، ساعد على استقرار هذه اللغة ، إذ أصبحت أداة لنشر الآداب والعلوم ، وما لبثت ان انتشرت في كل مكان . وفي القرن السادس عشر ، كانت الظروف مواتية لاتحاد اللهجات. فحركة الاصلاح الديني التي اعلنت الحرب على البابوية، اخذت تدعو للقضية الوطنية ، مناصرة اللغات القومية على اللغة اللاتينية ، لغة العصور الوسطى ولسان حال الكنيسة الكاثوليكية . ثم جاءت النهضة العلمية فاسدت يد المعونة الى هذه الحركة . لكن هنالك عاملاً قوياً كان له الفضل في كسب المعركة الحاسمة : الا وهو اختراع الطباعة وانتشارها . ففي سنة ١٥١٦ ظهر ٥٥ كتاباً مطبوعاً ، ثم ارتفع هذا العدد إلى ٤٩٨ في سنة ١٥٢٣ .

وقد طبعت مؤلفات لوثر نفسه في ذلك الوقت ، والمعروف عن الالمان انهم مولعون بالكتب ، تواقون الى بحث النظريات ، ميالون للدرس والتمحيص . لذلك اخذت المدارس تنشأ ، حتى بلغت المئات عدّاً ، وعكف الشعب على الاطلاع ، متخذاً الالمان نبراساً يهتدي به ، وترجمة التوراة مثالاً يحتذى ، ولم يمض زمن طويل حتى اصبحت اللغة الالمانية اداة لنشر الثقافة والادب بين جميع الالمان ، الذين لقنوها في المدارس وتعودوا تدريجياً على استعمالها في المجتمعات وفي المحادثات اليومية .

وبد هي ان كل قبيلة من القبائل الجرمانية ما زالت تعرف لهجتها الخاصة وتستعملها . ولكن كل الماني ملم بالقراءة والكتابة يفهم فهماً تاماً لغته الفصحى . وهنا يجب ان اقول ان جميع الالمان الذين نشأوا في البلاد يحسنون القراءة والكتابة . اما اختلاف اللهجات ، فمن السهل ملاحظته في النطق ، إذ انه ظل اقليمياً . اما اللغة الالمانية المتحدث بها والمكتوبة ، فهي واحدة . ويرجع الفضل في ذلك الى ترجمة التوراة وإلى المدارس . فلولا المدارس ، والكتب الرخيصة الثمن ، والروح التواقة للعلم ، لما وجدت الامة الالمانية المتحدة .

للمسلمين كتابهم الكريم باللغة العربية ، هو القرآن ، تلك المعجزة الرائعة التي لا يستطيع أي انسان مباراتها . وقد وضعت قواعد النحو وحددت تحديداً ازلياً . فاذا استطاع المسلمون بناء مدارس في جميع المدن والقرى ، وإذا عمموا اللغة الفصحى ،

لانبثقت عبقرية القرويين والعمال ، ولانتجت بلا مراء روائع ادبية جديرة بالاعجاب . لقد كانت الطباعة قوة فعالة في نشر التعليم ؛ اما الآن فامامنا اداة اعظم شأناً لتعليم الشعب لغة بلاده ، هي المذياع ، فالمذياع عامل قوي من عوامل التقدم ومكافحة الامية والفقر ، ونشر المعرفة ، والترفيه عن النفس ، عامل لم يسبق له مثيل في الازمنة الماضية .

والروح الغريزية للشعوب الناطقة بالضاد ، ستحفزها على انتهاز الفرصة للظهور في الميدان . فمنذ خمسين عاماً ، قلّما كنا نعثر على قصة عربية حديثة ، وقلّما كنا نجد جمهوراً من القراء لمطالعتها . ولا غرو ، فقد كان مجتمع الناطقين بالضاد معجبا بائمة الادب القديم ، ضارباً على مثالهم ، حتى في اسلوب الرسائل المتبادلة ، وإن مجرد القاء نظرة على الرسائل المنشورة في الكتب المدرسية منذ نصف قرن ، يجعلنا نتحقق من الفارق الكبير بين اسلوب المعاصرين ، واسلوب اجدادهم . لقد سرّى المرحوم السيد مصطفى المنفلوطي عن نفوسنا ، بقصصه ، التي نسجها على منوال القصص الفرنسية ، فاخذنا نندب حظ ماجدولين العاثر . اما الآن فيوجد نثر ادبي عربي اصيل غير مقلد ، وهو يعبر عن افكار المؤلفين تعبيراً ذاتياً . فالموضوع الآن هو الذي يجب ان يجتذب اهتمام القارىء ، لا الاسلوب البديع والجمل الطويلة المسجوعة ، التي يحاول بها الكاتب اظهار براعته ، وقوة بيانه . بل يجب ان يتجه المؤلف الى كشف ماخفي من آلام الشعب ، محاولاً تحسين حاله ، وتحقيق آماله .

إن كل انتاج ادبي ، مطبوع بطابع عصره . فمنذ أجيال عديدة ، ظل الأدب العربي وقفاً على الطبقة الممتازة ، متخذة اياه مسلاة للترفيه عن النفس ، حيث كانت تقضي اوقات الفراغ في دراسة المقامات ودواوين الشعراء القدامى على مافيها من تعقيد ، إلى غير ذلك من الشعراء الاتباعيين . لقد دالت دولة السادة والاشراف، كما دالت دولة القطار القديم ؛ وبعد ان كان قافلة من الجمال ، اصبح عربات تجرها قاطرة . فالشعب الآن هو الكل في الكل . لقد اهمل امره طويلاً ، لكنه ظل في الماضي يكافح مكافحة الابطال للحصول على نصيبه من الثقافة والحضارة . لقد انتج الشعب العربي الروائع من الأدب الشعبي في قصص الف ليلة وليلة ، التي تعد آية في ثروة المادة وخصب الخيال ، مما جعلها جديرة بتبوؤ المكانة الاولى بين مصنفات الأدب الشعبي . وهذا مثال لما يستطيع الأدب الشعبي العربي ان يدركه من التقدم في المستقبل .

جاء المذياع فكان القنطرة التي تصل بين الفصحى والعامية ، بعد انقطاعها الطويل ، فجميع المحطات تذيع مناهجها باللغة الفصحى، وباسلوب يستطيع فهمه كل عربي على شيء من الذكاء . لقد امتنع المذياع عن نشر النطق الخاطيء او الغلطات النحوية الشائعة لدى عامة الشعب . كما انه تجنب استعمال الجمل الطويلة ، والتعبيرات الطنانة الرنانة ،والغريب من الكلام ، الذي لايفهمه الا المتحذلقون والمعلمون .

فاذا سألني سائل محب للاطلاع : أية من اللغتين يجب المحافظة

عليها ونشرها ؟ لأجبته بلا تردد انها الفصحى ، بشكلها المعتدل المهذب ، الملائم للتعبير عن الحياة العصرية . وفي مفترق الطريقين ، يجب ان نختار ذلك الذي يرفع الشعب من مدراج الجهل الى مدراك العلم ، لا ذلك الذي يهبط بالمتعلمين الى مستوى الجهلة ، فالسبيل الذي اتخذه الشعب الالماني منذ اربعة قرون ، خليق بان يسلكه اليوم الناطقون بالضاد . انني اقدر الصعاب التي يواجهها التلميذ عندما يبدأ في تعلم الكتابة . فكأنه يلقن لغة اجنبية ، لا لغته القومية . وأعرف أيضاً ان كثيرين يريدون التخفيف عن التلاميذ ، بجعل لغة الكتابة مطابقة للغة الحديث المنزلي الدارج ، ولكن ماذا يكون عندئذ مصير التراث الثقافي العربي العريق ، الذي يعد بحق مفخرة من مفاخر الانسانية ، سيصبح وقفاً على المستشرقين ، يتمتعون بدراسته ، بل سيصبح كتاباً مغلقاً يعجز عن قراءته المتكلمون باللغة العربية .

وكما ان الطباعة ساعدت اللغات الأوربية على الاستقرار ، كذلك واكثر من ذلك فعل المذياع الآن . فالتعليم العام ، المدعم بوسائل الترفيه عن الشعب ، سيؤدي خدمات جليلة ، في سبيل تقدم الانسانية ، وسينقذها من طريق الانحطاط .

لقد وجد دعاة انتصار العامية حلفاء لهم في اشخاص بعض المصلحين ، الذين يفكرون في ابدال الحروف العربية الاصيلة بالحروف اللاتينية . ويبدو ان هذه الحركة قد اكتسبت قوة الى مدى ان مجمع اللغة العربية ، قد تناول المشكلة ، ونشر نتيجة لها

في كتاب عنوانه : تيسير الكتابة العربية .

لقد قبل الاتراك الحروف اللاتينية في سنة ١٩٢٨ واكره مصطفى كمال اتاتورك الصغار والكبار من افراد الشعب ، على ترك الحروف العربية والاستعاضة عنها باللاتينية . لكن اللغة التركية تتلاءم مع هذا التغيير . وسبق للمستشرقين الاوروبيين ان استخدموا الحروف اللاتينية في كتابة اللغة التركية قبل اصلاحات اتاتورك باكثر من قرن . ورغم هذا ، فما زالت هنالك صعوبات ، نظراً الى ان العناصر العربية في اللغة التركية الفصحى قد اعيت الذين حاولوا وضع حد موحد للتعبير عنها ، وما زالت حالة التردد قائمة في هذا الصدد وقد سار تغيير الكتابة جنباً الى جنب مع حركة حماسية صوب تطهير اللغة ، من آلاف الكلمات المنحدرة من اصول فارسية وعربية ، واشتقاق كلمات من عناصر تركية صحيحة ، هكذا ظهرت في الوجود لغة جديدة ، واصبح كل كاتب يبتكر كلمات خاصة به ويشرحها في معجم صغير ملحق بقصته . وقد اقتحمت كلمات فرنسية عديدة اللغة التركية ، عن طريق الحروف الهجائية الاوربية ، وحلت محل الكلمات الفارسية والعربية المستأصلة .

وكان لهذا الحدث آثار بعيدة المدى ، اذ استهل عصر جديد في التاريخ التركي ، فالجيل المعاصر عاجز عن قراءة او تفهم الادب التركي القديم ، الذي يرجع عهده الى ٦٠٠ سنة . والحكومة تتولى طبع بعض المؤلفات القديمة ، بالحروف اللاتينية ، مشروحة ومعلقاً عليها .

الاستاذ جرمانوس يلقي احدى محاضراته في جمع من الادباء والعلماء في القاهرة

وقد دعا عبد العزيز فهمي الى استخدام الحروف اللاتينية في الكتابة العربية ، لكن اقتراحه كان عقيماً . فرغم كل محاولاته ، لم يوفق الى ايجاد اصوات لاتينية ملائمة لاكثر من ٤٠٪ من الاصوات العربية ، لذلك اضطر الى ادماج الاشكال العربية الاصلية مقلوبة : مثلا حروف ج و ح و خ و ص و ض و ط و ظ و ع و غ و ء وعلامات الاعراب .

إن العربية لغة سامية تمتاز بثلاثية الحروف وبكثرة الحروف الساكنة ، وباصالة الحروف المتحركة . وتطبيق قواعد النحو على الكتابة العربية يرجع عهده الى القرن الثامن الميلادي ، وقد حددت تلك القواعد بدقة وعناية ، مع مراعاة طبيعة اللغة العربية ، فاصبح من المتعذر تعديلها أو تبديلها . ففي خلال أربعة عشر قرناً أخذ الكتاب والقراء المنتشرون في الاقطار الكائنة بين ضفاف الهندوس شرقا الى شواطىء المحيط الاطلسي غربا ، يتطلعون بأبصارهم الى ذلك الادب الخاضع لتلك القواعد النحوية والاملائية الدقيقة . نعم ان هذه القواعد يجب أن تدرس وتراعى . ولكن هل هنالك لغة في العالم بلا قواعد نحوية واملائية جديرة بالدرس الجدي ؟

ان ثقافة المسلمين المتكلمين باللغة العربية ورفاهيتهم ، متوقفتان على العلم . قال نبينا صلوات الله عليه : « اطلبوا العلم ولو في الصين ». وبهذه الروح ، علينا ان نعمد في سبيل نشر التربية وما يترتب عليها الى التحرر من المساوىء التي نشكو منها الآن .

نظرات في الأدب العربي الحديث

لعل من الجرأة ان اتحدث عن الادب العربي المعاصر وانا الأجنبي الذي يعيش بعيداً عن الاقطار التي تتكلم بهذه اللغة العربية الجميلة ؛ تلك البلاد التي تحرر أدبها تدريجياً من قيوده التي كبلته طوال العصور الماضية. ولست أعرف من آثار الادب العربي المعاصر الا تلك التي يرسلها إليَّ اصدقائي ، ومعظمهم من المصريين وبعضهم من السوريين .

وعلى هذا ، استميح القراء عذراً ، وارجو أن يعتبر حديثي مجرد تأثر سطحي إكتسبته بالتأمل العاطفي . وهو ليس نقداً محيطاً بالموضوع أو بحثاً كاملاً له . ويعلم القراء جيداً أن الادب هو التعبير عن الافكار والاحاسيس الشخصية للكتّاب في أي عصر . وهؤلاء المؤلفون والكتاب ليسوا مستقلين عن عوامل شتى تؤثر فيهم وتقرر اتجاهاتهم وأفكارهم وأساليبهم ومواضيع انتاجهم .

وفي العصر الذهبي للادب العربي ، كان نظام المجتمع وليد القوى الانتاجية التي كانت سائدة في تلك الاوقات . وقد كان المجتمع

مكوناً من طبقة مسيطرة تعيش على دخل ضخم يعود على افرادها من ضياعهم الزراعية ، ويضمنه لهم العمل المتواصل للعبيد . وكانت الطبقة المسيطرة مرتبطة تمام الارتباط بالحاكم نفسه يحيط به افرادها بصفتهم عبيده الاوفياء في السلام والحرب مقلدين في حياتهم الشخصية أساليب الخلفاء . وقد أقاموا قصوراً ضخمة أثثوها بفاخر الرياش وملاؤها بالآنية الفضية والذهبية ، وتعجرفوا وتبهرجوا وسط حشود من الموالي والخدم والحشم . عاشوا حياة الرغد والترف ، وهذا الترف في ذاته لم يكن تبديداً للثروة الوطنية لانه اتاح عملا الملايين من الصناع الذين انتجوا احتياجات هؤلاء الاغنياء وتسببوا في رقي صناعة النجارة والنحاس والنسيج والخزف والورق والسلع الاخرى التي اثارت اعجابنا .

وقد اجتذب ثراء الطبقة المسيطرة ، الشعراء الموهوبين الذين خدموا بعبقريتهم القصور باسلوب يتفق مع نظام ذاك المجتمع . ففي حفلات السمر المسائية ، كان هؤلاء الشعراء ينشدون اشعارهم لادخال السرور على قلوب السادة ولمرحهم ، الذين كانوا يجزلون لهم العطاء . وكانت مواضيع هذه القصائد واشكالها محدودة ، فقد كانت قاصرة على احتياجات القصور . كان هذا فناً قاصراً على الطبقة الراقية . وقد تطورت اجزاء من القصائد العربية القديمة الى تعبيرات أدبية منفصلة : مدح — هجاء — غزل .

وقد قرر الاساس الاقتصادي للمجتمع في القرون الوسطى مستقبل الادب العربي لقرون طويلة . ولما كان الاساس الاقطاعي

للمجتمع لم يتغير ، فقد بقي الموضوع والاسلوب في الادب على حالهما . وكان لكل جيل شعراؤه : كبشار بن برد وابي نواس والمتنبي والبحتري وأبي العلاء المعري وابن الرومي وابن زيدون والصوفيين ، وكان بعضهم بعد أن أفل نجم العصر الذهبي للادب قد انحط وانحدر الى مرتبة المقلدين ، ولكن تعبيراتهم واساليبهم قد بقيت على حالها .

وكان لدى افراد النخبة الممتازة من المجتمع الوقت الكافي لكي يدرسوا ويتعلموا ، فاكتسبوا علماً راسخاً في اللغة العربية التي تطورت نحو الرقي بطريقة منقطعة النظير ، وكان الادب احدى ملذات ومتعات الطبقات المثقفة الغنية . وكانت الجماهير الشعبية لاتدرك الادب الرفيع ولكنها كانت تتلذذ بنوع شعبي من اشكال الادب ، كانت لغته بسيطة ، ومواضيعه اكثر خيالا بحيث توافق أذواق العمال والبحارة والتجار والصناع . وقد انتج هذا الادب الشعبي آثاراً فنية ممتازة في طرازها مثل قصة « عنتر » و « الف ليلة » التي ادمجت فيها قصائد لكبار الشعراء أمثال أبي نواس وابي العتاهية الخ ...

وقد أفل نجم العصر الذهبي وساد الجهل وحل محل العلم الذي كان فخراً للأدب العربي وفخراً للحياة الاجتماعية أيضاً . وقد وصف شهود العيان كيف انحط مستوى العلم في الاقطار العربية . وعندما ظهرت في افق الاسكندرية قوات نابليون لم يكن لدى المماليك أي فكرة عن ضخامة القوة العسكرية لفرنسا ، حتى لقد كتب الشيخ عبد الله الشرقاوي بعض الموضوعات خلال رئاسته

أذكرها على سبيل المثال فيما يلي :

« ان أقصر الفراعنة أسنانا كانت أعمارهم مائتي سنة . وكان أطولهم عمراً ستمائة سنة . وان فرعون موسى كان قصيراً طوله ستة أشبار وطول لحيته سبعة ، وقيل كان طوله ذراعا واحداً . وأن هذا الفرعون بقي على عرش مصر خمسمائة سنة . »

ولا يفصلنا عن هذا الزمن المحزن سوى قرن ونصف . ذلك الزمن الذي كان فيه بعض شيوخ الازهر ـ طبقاً للمصادر الوثيقة ـ لايستطيعون كتابة اللغة العربية بلا أخطاء . ولم أذكر هذه الامثلة لكي ألوم أو أنتقد الأسلاف الكرام ، بل لكي أمدح الجهود والصبر والنتائج الباهرة التي حققها الادب العربي المعاصر . وقد فتحت حروب نابليون أبواب مصر نحو الغرب . وقد نهبت القوى الغربية ثروات مصر المخبوءة واستغلتها أقصى استغلال ، وقد ألقت مباذل اسماعيل بمصر في أحضان الاجانب ، وقضي على حرية مصر التي كانت منتظرة . وقد انتج البؤس الذي فرضته السيطرة الاجنبية على مصر نتائج مؤثرة هي إيقاظ الشعور الوطني وتغير أسلوب الانتاج نتيجة للاحتكاك بأوروبا .

وقد بقي البناء الاقتصادي لمصر مشابها لبنائها القديم الاقطاعي أي أن الأرض والثروة بقيتا في أيدي الاسرة الحاكمة ومواليها البكوات والباشوات . ولكن الثورة الصناعية التي غيرت وجه أوروبا لم تترك مصر بلا مساس . وقد وَفَدَ على مصر آلاف الاجانب ، وفتحت المدارس الأجنبية ، ونزح الى أوروبا الطلبة المصريون ،

وصارت مصر قطعة من أوروبا . وقد خلقت الاعمال التجارية طبقة متوسطة مثقفة في كل الفنون والعلوم الحديثة ، كما أوجدت أسلوبا جديداً للحياة والسكنى يختلف كل الاختلاف عن أسلوب الاجداد ويتمتعون بأنواع من اللهو تخالف الأنواع المملة البائدة من قصائد المرح المليئة بالمجاز والتشبيهات. وبقي الأدب الشعري سائداً كما كان، ولكن جرساً جديداً ظهر له هو صوت الحرية . ولم تكن الحياة السياسية قد وجدت لها تعبيراً في الشعر العربي . ومنذ أن اقترف حزب الاتحاد والترقي التركي خطأ قمع الشعور الوطني للعرب ، فقد ولد هذا القمع بالتالي رد فعل قوي ، ونشأ أدب شعري وطني عربي استمر منذ ذلك الوقت ، أي بعد الحرب العالمية الاولى وخيبة أمل العرب في استقلالهم ، مما أضرم نار الشعر الوطني الى أقصاها. فظهر ولي الدين يكن وجميل الزهاوي وعلي الرماوي والرصافي وعبد الكريم عويضة وحسين الجبال وبدر الدين النعماني وخير الدين الزركلي وغيرهم في سوريا والعراق يمثلون هذا الاتجاه الوطني . أما مصر فقد بقيت لفترة قصيرة وفية للتقاليد الدينية التي ربطتها الى الخلافة والدولة العلية . ولكن عندما فرضت انكلترا حمايتها على مصر ، حيا كثير من الشعراء ، أمثال اسماعيل صبري وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم وغيرهم السلطان حسين كامل كحاكم البلاد الشرعي برغم شعورهم الداخلي واعتقادهم بأن انتقال السلطة من تركيا الى حماية انكلترا لم تمثل حرية الشعب المصري .

وقد نشأ نوع جديد من الادب الشعري عندما قابل الشعراء

أمجاد الماضي بالملابسات المحزنة الراهنة ، ورغبوا الشعب بالنضال في سبيل الاستقلال .

وقد كتب صديقنا القديم مصطفى لطفي المنفلوطي الذي خدم الادب العربي بتقديمه طرازاً أوربياً في قصصه برغم أنه كان يحذر من تقليد الغرب ـ فقال في نظراته :

« ان دعوناهم الى الحضارة فلنضرب لهم مثلا بحضارة بغداد وقرطبة وطيبة وفينيقية ، لا بباريس وروما ونيويورك ، وان دعوناهم الى مكرمة فلنقل عليهم آيات الكتب المنزلة وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه ، لا آيات روسو وباكون ونيوتون وسبنسر ، وان دعوناهم الى حرب ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين مايغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون ونلسون وبلوخر » .

ومثل المنفلوطي عدد غير قليل من الذين يقفون موقف الحذر من حضارة الغرب ويدعون الناشئة الجديدة الى الاقتداء باسلافهم واتخاذ السبل التي سلكوها نحو اهدافهم .

ويتبين هذا الاتجاه الوطني في الادب في أدب كل شعب صغير وصل الى مفترق السبل ، وقد استلهم المؤلفون الموهوبون دائماً من الماضي المجيد لتشجيع الافكار التقدمية ، ومما لاريب فيه أن المخترعات الحديثة أمثال القوة الكهربائية والمواصلات السريعة آتية كلها من الغرب ، وانها قد أثرت في أحوال الشرق العربي أقوى تأثير . وقد بدأت حضارة الشرق العربي تقوم على ارض صلبة

كالاهرام في مصر ، هي اللغة العربية والتقاليد الاسلامية .

وبادرت مصر الى الاشتراك في تطور الادب الجديد فوراً .

ومما اجتذب نظري اكثر من غيره ، ورأيته يبشر بمستقبل زاهر ، هو القدرة على الانتقاد وجرأته . وقد كان الدكتور حسين هيكل في كتابه « ثورة الادب » ينتقد بجرأة وشدة الاتجاه الذي يتخذه الادب ، ولم يكن الدكتور هيكل ضد تأثير الثقافة الغربية ، ولكنه بين أهمية بقائها عربية اسلامية . وقد أوضح ان الرواية الادبية الطويلة لا يمكنها ان تتقدم في قطر عربي اسلامي مادامت الروايات لاتصف الحياة الاجتماعية ، وما دامت المرأة منعزلة عن المجتمع . وينتقد الدكتور هيكل « أنانية الرجل المسلم » وانعدام التعاون الاجتماعي ، وهو يلوم المؤلفين المصريين لأنهم لايستمدون ملاحظاتهم من الحياة الواقعية ، بل من الكتب ، وبالتالي فلا يمكن ان يرقى الادب الى مراتب الحقيقة . وهو يذم الكتاب لنفاقهم ورياءهم وعدم اخلاصهم . وقد نشر كتاب الدكتور هيكل منذ أربعين عاما ، ومع أنا نعتبر نقده شديداً جداً لانستطيع ان ننكر قيمته لجرأته وصراحته ، والشعب الذي يحتمل هجوم النقد ، ولو كان شديداً ، لابد ان ينجح في مضمار الادب .

وقد أعقبه ناقد آخر أشد منه عنفاً ، هو الدكتور طه حسين هذا العبقري الراسخ في علمه والرجل البالغ الحصافة الذي أثبت شهرته بكتابه المعنون « الايام » ، فهو يدعو الى امعان النظر في أهمية الادب العتيق الاغريقي ، إذ أهملت الحضارات الشرقية دراسة

المؤلفين اليونانيين واللاتينيين القدامى منذ القرون الوسطى ، مع أن العرب كانوا المترجمين لآثار هؤلاء المؤلفين والمبشرين بها في الغرب في القرون الوسطى . وقد تفرقت السبل فيما بعد ، فنهل الغرب من الحضارة الكلاسيكية بنهم ظامىء وبقيت الثقافة اليونانية واللاتينية المحور الوحيد للدراسة في الجامعات البريطانية بينما نسي الشرق الاسلامي تراثه النبيل .

وحينما نشر كتاب « الاخلاق » لاريسطو في ترجمة أحمد لطفي السيد عن اليونانية ، تشكك الكثيرون في نجاحه . وقد مال المسلمون العرب الى نسيان فضل أسلافهم الكرام في هذا المضمار . وقد أصاب الدكتور طه حسين المرمى في النقطة الحساسة في كتابه « صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان » إذ ذكر أن الثقافة العصرية الحقيقية لا يمكن تخيلها دون معرفة جذور هذه الحضارة ، وتوجد تلك الجذور في الادب الكلاسيكي . ومن الخطأ العميق الجدال في ان الشرق منفصل عن الغرب ، لان الحضارة والثقافة الاسلاميتين تستمدان قوتهما من القرآن الكريم وهو الكتاب المقدس المنزل والمتمم للتعاليم الاخلاقية التي وجدت عند الغربيين ، والعلوم والفنون التي نشرها العرب ونقلوها الى النصارى أثناء القرون الوسطى ، مستندة الى آثار المفكرين اليونانيين مثل حضارة الغرب تماما . فليس هناك فرق أصلي بين الحضارتين النصرانية الغربية والاسلامية الشرقية ، لان كلا منهما ينبع من نفس المصدر ، ونحن مدينون للدكتور طه حسين لخدماته الهادفة الى

تنوير الادب اليوناني الكلاسيكي . فقد أشار الدكتور طه الى أن أوربا ذات حضارة مركبة ، وهكذا كانت الحضارة الاسلامية في عصرها الذهبي ، وينبغي أن تستمد قوتها من كل منابع التعليم لكي تنتج آثاراً ذات قيمة .

ونعود الى الدكتور حسين هيكل وهو ينتقد في كتابه عن الادب القومي اصطناع الاسلوب عند شكيب أرسلان . فهو يصنع الكلمات ، وهو أستاذ في هذا الفن ، لكن الشيء الأهم في الادب ليس الالفاظ ، بل المعنى العميق . والمؤلفون الاوربيون برغم أن لغتهم تقادم عهدها ، قد خلقوا روائع ادبية ، لانهم عبروا في اخلاص عن الافكار والاحاسيس التي سادت في عصرهم ، ولا قيمة للادب الا إذا استمد مواضيعه وأهدافه من حياة الشعب قاصداً تحسين أحواله . ويرى هيكل الا فائدة تذكر من نقل عناصر أجنبية الى الادب المصري . وكل أدب مصطنع مقضي عليه بالفشل من البداية . ويوجد جدال بين ممثلي مذهب الفن للفن ، وبين ممثلي المذهب القائل ان الادب الطبيعي تعبير عن عبقرية الشعب ينبعث من حياته ومشاكله وآماله الدنيوية في شكل غني بالطبع . وينتمي هيكل الى الفئة الثانية من النقاد ، واتجاهات الحياة الاجتماعية العصرية في جانبه . وقد خطا في روايته « زينب » في طريق الادب الواقعي الرومانتيكي .

وقد كان الادب الفرنسي أكثر الآداب تأثيراً في واحد من أكبر القصصيين المصريين وهو محمود تيمور . فقصصه تصف حياة

مصر في كل مظاهرها ابتداء من الطبقة السفلى الى الطبقات المرفهة بأسلوب لطيف . وهذا النوع من القصص أدب حقيقي مكتوب بتعمق وتبحر في شتى دروب الحيـــاة . ولمحمود تيمور مسرحيات رائعة ، بعضهـا مأخوذ عن التاريخ العربي مثل « ابن جـلا » أو « اليوم خمر » واصفاً حياة امرئ القيس الشعرية وبطولته . وروايـاته الطويلة مثل « نداء المجهول » تعرض حكاية رومانتيكية في لبنان تجتذب القارىء بخيالها من البداية الى النهاية. أما مسرحيته كليوباترا في خان الخليلي ، فانها تدفع القـارىء الى الضحك من عجز عصبة الامم .

وكم كنت أود لو أستطيع الاسهـــاب في الكلام عن آثار تيمور ، ولكن تمنعني الرغبة في الايجاز عن هذا المقصد . وإنني ألفت أنظار قرائي الى مقـالتي عن محمود تيمور في « اسلاميك ريفيو » سنة ١٩٥١ وهي التي ترجمت الى العربية أيضاً .

وأما صديقي العزيز توفيق الحكيم فقد أهـدى الي حوالي العشرين كتابا من روائعه الأدبية . وهـــو شاعر متفنن وكاتب مثقف الى ارفع الدرجات ، وجد مواضيع وأفكاراً دمجها في رواياته مثل عودة الروح ، وهي تجربة لادخال العامية في الحوار والفصحى في الوصف . وكانت محاولة جريئة ، وقـــد عرض المشكلة التي كانت تعترض الادب العربي : « هل يحيد الادب عن الطريق الموطوء منذ قرون فيخلق أسلوبا جـديداً لاتستطيع الحروف العربية أن تعبر عنه ؟ ام يتابـع النحوية في طراز معتدل

عصري ؟ » وفي روايته « أهـــل الكهف » صورة حوارية لفكرة « ماعسى أن يحدث في خيال النائمين الذين يستيقظون بعد قرون ؟ » وقد كان لهذه الصورة رواد في الادب الشرقي سبقوه في شكل مظاهر وتأملات عن الحيـــاة بعد الكون الدنيوي . ولكن توفيق خلق بلغته الشعرية البسيطة أثراً بزّ به الجميع ،وهو جدير بأن يترجم الى اللغات الاوربية .

وأما صديقي العزيز المرحوم عبد القادر المازني فأني أؤبنـه احتراما لما كان له من قدر كبير . فقد حاز بقطعه الأدبية والنقدية قصب السبق بين الكتاب . وقـد انغمس في ماضي الادب العربي الذي زوده بافكار جديدة . وكان مرتبطاً ارتباطا قويا باسم صديقه عباس العقاد الكاتب المكثر الغزير الانتاج ، والذي بلغ عدد كتبه حوالي أربعين مجلداً . وكتاباه « مطالعات » و «ساعات بين الكتب» هما مجموعة مقالات نشرت في جرائد شتى ويخرج فيها من حدود العالم الاسلامي وينتقد ويعلق على آثار الكتاب الأوروبيين الكبار أمثال « ماكس نوردو » و « أناتول فرانس » وغـيرهما . ويعرض فلسفة « ايمانويل كانت » المفكر الألماني. وأسلوبه هو الاسلوب الصعب . وهو يطلب الحجج من النقـاد ويرفض الذوق الشخصي الفردي في حكمهم على اعماله الادبية .

ويماثله في ميله الى الـكتب العلمية الاجنبية سلامة موسى ، ولكنه يختلف عنه في نظرته . وهو أحد علماء الاجتماع الذين بحثوا مذهب النشوء والارتقـاء والتطور « لداروين وسبنسر » ويناضل

بقلمه في سبيل الافكار الثورية . وهو مثقف متبحر في الأدب الفني الأوروبي برغم أنه يميل بدون وعيه الى المذهب الرومانتيكي الذي يسلك المسلك القائل بأن الجنس البشري يمكن ان يصل الى السعادة بوساطة العقل والفكر .

وعلى نقيضه ابراهيم المصري الذي عرض على القراء المصريين أحسن آثار الادب الأوروبي في كتابه « الفكر والعالم » . وهو يعارض تصنيع الحضارة . وهو يندب الآلة ، مثل شريط الخيالة الناطقة ، الذي جعل الانسان كالآلهة . وآراؤه قد دحضت بتطور السينما الاحدث . ولنضرب مثلاً بالأوبرات الغنائية الكبرى فانها يمكن اخراجها في الفضاء بوساطة الفيلم بطريقة تفوق أخراجها على المسرح الضيق . والآلات لاتستعبد الفكر الانساني بل بالعكس تحرر الجسد الانساني من حدوده الضيقة وتعطيه امكانيات لايحلم بها . وفي كتابه « صور الجيل » يقترب من فلسفة بيرغسون كما يبدو في كتابه « ايفولوسيون كرياتريس » حيث يبرر سيادة الروح على المادة . وفي كتابه « متعلمون وشعب » يبرز موقف طبقة المثقفين والطبقة العالية التي لارابطة تربطها بالشعب وهو يطالب بتربية أوسع تمكن الشعب أن يصبح جمهوراً من القراء للمؤلفين . وفي كل شعب صغير ينبغي أن يناضل المؤلف في جبهتين : الجبهة الاولى تأمين رزقه والجبهة الثانية خدمة تقدم الأدب . وابراهيم كاتب جرىء وجدير بالاعتراف بفضله .

وأما فكري أباظة فقد كان محامياً ، وفي أحد أيامه المفعمة

بالعمل قرأ في الصحف عن أن المعتمد البريطاني سيسافر من مصر، فجلس من فوره وكتب مقالة فكاهية عن هـذا الحادث . وانفجر ضاحكا بعد الانتهاء منها . وقد تعجبت الكاتبة على الآلة من السبب في ضحكة مخدومها هذه الضحكة الجهورية . وقرأت المقالة سراً ثم انفجرت ضاحكة هي أيضاً . وسمع الخادم الضحكة ورغب في معرفة السبب ، ولكن الفتاة لم تفصح عن السر ، الا أنها أرسلت المقالة الى جريدة « الاهرام » ونشرت ، وأصبح فكري أباظة كاتباً رغم أنفه ، واستمر في متابعة مقالاته بنجاح .

وأما صديقي بشر فارس فهو مثال الجنتلمان العلامة ، يعيش في وسط الامراء ، وكتابته أيضاً تنم عن ذوقه السليم وعمق معرفته . وكتابه « مباحث غربية » هو أحد روائع البحوث الاستشراقية . وقد سمعت أنه الى جانب رسوخه في العلم ، يبزّ كل الطهاة في اعداد ألوان الطعام اللذيذة ، لكن زميله في هذا المضمار هو زكي طليمات المخرج المسرحي .

ومن الصعب أن أعدد كل الكتاب الذين نشأوا خلال السنوات العشر الاخـــيرة . ولا أعرف سوى الذين تكرموا عليّ بارسال مؤلفاتهم . وكم كنت أود لو بقيت في البلاد العربية مدة طويلة أقرأ كل ماينشر ، لكن وجودي في بلاد بعيدة عن العالم العربي ، يوجب عليّ أن أقصر اهتمامي على بعضهم فقط .

وكان الروائيون هم الذين جذبوا أنظاري الى آثارهم . فالأدب الروائي هو الصورة الحقيقية للعصر ، وهو شكل الأدب الذي

يعبر عن اخلاص المؤلف وارتباطه الوثيق بالحياة الخافقة . وترجمة حافظ ابراهيم لرواية فيكتور هوجو « البؤساء » تدل برغم أنه كان شاعراً موهوبا ، على أنه لم يدرك طبيعة وسجية ومهمة الأدب الروائي . فقد اعتبر هذا الاثر ذا القيمة العالمية الذي هدف الى ايقاظ شعور فرنسا الوطني ، لعباً بسيطاً بالسجع . أما الترجمات المصرية الاخرى للروايات الأوروبية فلم تكن الا خلاصات سطحية لاتعكس روح الاصل . واللغتان الفرنسية والانجليزية مقروءتان على نطاق واسع وقد اكتشف بعض المؤلفين المصريين في روائع الروايات الاوروبية الطراز الذي يستخدمونه لاثارة اهتمام شعبهم . ولو كان ثمة شكل أدبي غريب عن مذهب « الفن للفن » لكان هو الأدب الروائي . فليس هو شعراً وليس هو موسيقى ، ولكنه بناء صلة للاحساس وللحوادث والأفكار التربوية والدروس ، إنه في كلمة واحدة صورة صادقة للحياة في كل مظاهرها . فهو يتطلب مقداراً من الاخلاص بقدر مايتطلب الشعر ، ويتطلب مقداراً من الرسوخ بقدر مايتطلب التاريخ ، ويتطلب مقداراً من الفن بقدر ماتتطلب الموسيقى .

ولقد حَيِيتْ الروايات المصرية الاولى بفرح عظيم . وكانت رواية علي أحمد باكثير « الثائر الاحمر » قد أثارت اعجابي ، فهي رواية تاريخية تابع فيها عن قرب الحوادث التي يقصها المؤرخون المسلمون ؛ هي رواية اجتماعية ، لأنها تدور حول مسألة الثورة الاجتماعية في القرن العاشر . وقد كان بطلها حمدان قرمط مؤسس الحركة الشيوعية القرمطية . وهو يفسر كلمة « قرمط » بأنها

« أحمر » للتسهيل، لأن اللون الاحمر أصبح في أيامنا شعار الثورات الاجتماعية . وقد أدمج في روايته قصة غرامية ربما كانت حقيقية ، وتخفف من جري الرواية .وهو يعرض مشاهد حية شائقة مملوءة بالمشاعر الانسانية ،والقارىء من قراءته في رضاء تام .

وقد حاز باكثير جائزة بمسرحيته « السلسلة والغفران » وهي مأساة كالمأساة اليونانية القديمة . فيها توتر يدعو القارىء الى الشعور بمقدار نجاحها لو عرضت على المسرح ، ويخفف من توترها الشديد ظهور جارية تقوم بدور فكاهي . وهي تعرض عرضاً محزناً لعقوبة الجرائم التي تقود البطل الى حتفه . وقد تأثر المؤلف بالمأساة اليونانية القديمة الى عمق معين . وقد ترجم «اوديب» بأسلوب لا يُعلى عليه الى العربية .

فلننظر الى بعض الروايات الأخرى . فرواية نجيب محفوظ « البداية والنهاية » تحكي حياة اسرة في القاهرة . والذي ينظر الى حياة القاهرة نظرة سطحية ، لا بد ان يتحير من عمق هذا الأثر واتساعه إذ يعكس الحياة القاهرية في كل نواحيها . وقد أحبت النزعة الرومانتيكية ان ترى في الحياة الشرقية شعرية وخيالا زائفين ، لكن مثل هذه الرواية مثل صورة شمسية ملونة ، فأشخاصها من لحم ودم وليسوا دمى ، وبعض مشاهدها تطفح بالحياة حتى انني تخيلت نفسي وانا في بلادي النائية جالساً أشاهد شريطاً سينمائياً ، أو ماشياً في دروب ضيقة بين محلات القاهرة ، وأشم رائحة أزقتها واسمع اصوات اشخاص الرواية .

المؤلف بعد ان اعلن إسلامه وادى فريضة الحج

ومع هذا فما زال فيها الكثير من الرومانتيكية . فقد صور حب احد الأشقاء نحو بهية في رقة ، واما نفيسة البائسة ، أختهم الدميمة ، فقد كانت تعمل خياطة لتعول الأسرة وتحلم احلام الفتيات اثناء خياطتها اثواب العرس للفتيات الأخريات . وقد رضيت بودّ ابن البقال وسقطت ضحية لشهواته . وتتأرجح الرواية بين الامل واليأس في مشاهدها البهيجة ، وكان احد الأشقاء الثلاثة وهو حسن ، خبيثاً ، يعيش حياته القذرة في النوادي الليلية بين اللصوص . وقد نشب عراك بينه وبين زنجي سكران ، وكان وصف هذه المعركة من الروعة بمكان عظيم حتى لكأنه كتب بقلم احد كبار الروائيين الاوربيين . وقد كانت الحياة الداخلية المصرية بكل شوائبها ومزاياها النبيلة والتقاليد المقدسة للاسلام التي تتناقض مع المجتمع المتفرنج للطبقة الراقية ، تعرض أمام القارىء في تسلسل غير منقطع ، وتختتم القصة بانتحار نفيسة التي تسقط ضحية للتيار النهم للحياة الانفعالية . ومن المؤسف ان الرواية تحوي الى جانب الفصول الفائقة الحيوية ، على فقرات كان المؤلف يفلسف فيها المسائل ، مما كان يقطع مجرى الحكاية .

وقد كانت روايته « زقاق المدق » شيقة أكثر من غيرها ، وفيها عرض المؤلف نفسه في قمة قدرته على تصوير الشخصيات . وفي الرواية أشخاص مثل الطبيب المزيف الذى ينتزع الأسنان من القبور في رفقة صديق له يعيش في قاعة مظلمة قذرة ، وكان عمله ان يقوم بتشكيل العاهات للشحاذين . وثمة شخص آخر

من أشخاص الرواية ، وهي أرملة غنية تعمل خياطة ، ثم تتزوج بفتى حديث السن .. كل هـذا جدير بقلم ديكنز والرواية صورة واقعية ، او بالاحرى هي صورة مظلمة للحيـاة القاهرية . وهي تشير الى أماكن الداء وأين ينبغي ان يعالجها الطبيب الاجتماعي .

أما عبد الحميد جودة السحار ، فروايته « النقاب » قطعة من الادب الواقعي أيضاً . فالحب في الاقطار الاسلاميـــة يقتل غالباً بوساطة التقاليد . وهذا التناقض يجعل حياة المحبين تتحول الى مأساة . ومثل هذا الزواج المشؤوم موصوف مع كل مايحيطه من توتر في هـذه الرواية . وعبد الحميد جودة السحار له رواية أخرى هي « في قافلة الزمان » تظهر تأثير الروايات التي كتبها مؤلفون أوربيون مثل زولا وتوماس مان ورومان رولاند التي تحكي حياة الاجيال من اسرة واحدة من الجد الى الحفيد . ورغم انقطاع سلسلة الحوادث فله الفضل في اظهار الكثير من العـادات القديمة المصرية والتي لازالت سائدة في الحيـــاة العائلية ، وان الخرافات لازالت منتشرة في البـــلاد . والرواية تشجع الوطنية الصادقة وتدعو الى اصـــلاح التعليم والتربية . والوصف طافح بالحياةونزعته تميل نحو الاصلاح الاجتماعي ، وهـذا فضل جدير بالذكر .

ولا يفوتني ان أذكر شيئاً عن رواية عبد الحليم عبد الله « شجرة اللبلاب » وهي مليئـة بفلسفة الحب الأفلاطوني والحب الواقعي ، ويتخللها وصف للحيـــاة القروية . وأسلوبها منيء

بالتشبيهات ، وهو ينم عن رسوخ علم الكاتب ، وموضوع الرواية الحقيقي هو التناقض بين حياة المسلمين في الماضي وحياتهم اليوم . وقد نال هذا المؤلف نفسه جائزة أدبية عن روايته « بعد الغروب » وهي مثل سابقتها تمزج تسلسل الوقائع بكثير من التفلسف والمشاكل النفسية الى جانب أن العاطفية في بعض فصوله تبسط بساطها الأخضر فوق الحوادث ، كما نسمع نفس النغمة العاطفية في روايته « لقيطة » مع أن اسلوب المؤلف ينم عن قدرته الاستثنائية .

والى جانب هذه الروايات الطويلة ، كرواية « الأرض » لعبد الرحمن الشرقاوي ، وهي الجديرة بالمدح والثناء ، توجد القصص القصيرة وانتاجها غاية في الغزارة والخصب . « فأرض الخطايا » لامين يوسف غراب ، تحتوي على قصص من نوع الجرائم ، الى جانب المواضيع الريفية التي تعرض الحياة الواقعية للفلاحين بما فيها من المشاعر المتأججة والمناقب والشوائب . ومن كتاب القصة القصيرة الجديرين بالذكر ، محمود بدوي ، الذي اهدى الينا في مجموعة قصصه صوراً مأخوذة مباشرة من الحياة الواقعية، مثل «سائق القطار» التي تحتوي على حوار عاملين في القاطرة التي تدوس رجلاً يعبر القضبان ، ثم يتأسفان كثيراً ، لا لموت الرجل ، ولكن لتأخر القطار عن موعده . وقصته « صوت الدم » هي صورة حقيقية للحياة في القرية ، وهي ذات اسلوب زاخر وسهل ومؤثر جداً ، وقد أوجد بدوي في كتبه القصصية نوعا

جديداً من الادب ، فالحياة التي وصفها في قصصه ليست الحياة الرتيبة المملة ولكنها الحياة الشرقية المرتبطة بأوثق العرى بالحياة الاوربية . والمشاكل تنبع من الاصطدام بين وجود التقاليد وبين حياة التصنيع النابضة التي أوغلت في الشرق . وهذا الأدب الجديد وطني النزعة لانه لايخشى أن يسفر النقاب عن كثير من العيوب وكثير من الشوائب التي شوهت الحياة الاجتماعية المصرية . وهو يعرض اخطاء جهل أنصاف المتعلمين ، وحقد الأغنياء ، وآلام الفقراء ، وانانية الرجل ، وحماقة النساء وشهواتهن ، كل هذا من اجل تعليم ومعالجة وتطوير المجتمع حتى يستطيع أن يجاري بنجاح الجيران الذين كانوا أسعد حظاً في الغرب ، لا في مضمار المعارك الاقتصادية فحسب ، ولكن في مضمار الثقافة أيضاً .

وقد أقنعتني معرفتي المحدودة للأدب العربي المعاصر ، بان المؤلفين لو تابعوا كتابتهم من ذوات أنفسهم وبكل أخلاص ، فان عصراً ذهبياً جديداً لا بد ان يشرق على الادب العربي .

صور من الأدب المجري

١ – بذرة تتفتح

خلافا لسائر الشعوب الغربية ، نزحنا نحن معشر المجريين من الشرق ، حيث ترتفع الشمس مبكرة في الافق النقي الصافي ، ذلك الشرق الذي رفع لواء أروع الثقافات لأجيال طويلة . لقد انحدر أجدادنا المجريون من شعوب شرقية قديمة ، وتلقنوا حضارتهم على ايدي الفرس والاتراك .

وكان المؤرخون العرب أول من أشار الى وجود شعبنا في التاريخ . كتب ابن دسنة أن « المجغرية هم عبدة الينوان » . وقد وصفهم « جرديزي » الفارسي بأنهم وثنيون . لقد شرد المجريون من الشرق الى الغرب ، واخيراً استقروا في بلاد المجر الحالية في سهول الدانوب الخصبة ، واعتنقوا المسيحية . اضطروا الى ذلك اضطراراً . ففي قلب أوروبا ، وفي القرن التاسع الميلادي (الموافق للقرن الثالث الهجري) لم يكن هنالك مفر من شهر المسيحية بيد أن جموعا كبيرة من الشعب متشبعة بالعقيدة الاسلامية حافظت على دينها ، طبقاً لأوامر القرآن الكريم . وقد أطلق المؤرخون المجريون

عليهم اسم « الاسماعيليين » ، وظن بعض العلماء أنهم فرس نازحون بصحبة المجريين المشتتين واستقروا معهم في تلك البلاد . والواقع ان المجريين الاسماعيليين لم يكونوا من الفرس ، ولم يكونوا من أتباع يحيى اسماعيل الامام السابع ، بل كانوا مجريين صميمين أحناف المذهب ، وظلوا حتى القرن الثالث عشر يرسلون الطلبة في بعثات الى حلب ، لكي يتلقوا العلوم الفقهية في جامعها الحنفي الذائع الصيت . وأقام هؤلاء المجريون المسلمون في مختلف انحاء البلاد . والاماكن ذات الاسماء العربية الموجودة الى يومنا هذا ، تدل على أن هؤلاء المجريين المسلمين كانت لهم طوائف كبيرة العدد ، موفورة الكرامة .

بيد أن الدين الكاثوليكي الروماني ضاق ذرعا بالعقائد الاخرى . فأصدر الملوك المجريون قوانين جائرة ضد المسلمين ، فأخذت الحكومة تسومهم شتى صنوف الاضطهاد والتنكيل . لكن الشعب المجري لم يكف عن مد يد المعونة اليهم ، كلما وحيثما استطاع الى ذلك سبيلا . هكذا تسللت الأغاني الشعبية والقصص الشرقية الى القرى المجرية عن طريق المواطنين المسلمين . وقد أثبت المؤلف الموسيقي « بيلا بارتوك » أن الوزن والعروض في الشعر الشعبي المجري والموضوعات في الاغاني الشعبية المجرية ، من أصل شرقي اسلامي .

وقد أفل نجم الاسلام تدريجياً في بلاد المجر على أثر الاضطهادات المتوالية من جانب الكنيسة الكاثوليكية ومن جانب الملوك . ولكن شاءت سخرية القدر أن اضطر الملك اندريا الثاني الى الالتجاء الى

المسلمين المجريين لكي يضربوا له النقود الفضية التي يحتاج اليهـــا في الحرب الصليبية الخامسة المعلنة ضد الاسلام في بلاد الشام ، ذلك لأن المجريين المسلمين ظلوا — بالرغم من الاضطهاد — يزاولون التجارة وأعمال المصارف بنشاط عظيم في البلاد . كان وقت الرحيل أزف ، والملك لم يلبس درعه بعد . فضرب المسلمون الاتقياء المؤمنون العملة المجرية الجديدة بقالبهم الذي كانوا يعتزون به وظهرت على النقود شهادة : « لااله الا الله ». هكذا ذهب الملك المسيحي ليحارب المسلمين ، وهو يحمل نقوداً نقشت عليها الشهادة . فكم في التاريخ من مفاجآت !!

لم تكتف الكنيسة الكاثوليكية الرومانية باضطهاد الثقافة والعقيدة الاسلاميتين في المجر فحسب ، بل حاولت أيضاً إبادة الادب الشعبي المجري الاصيل . فما لبثت الأغاني الآسيوية أن اختفت رويداً رويداً ، ليحل محلها الأدب المسيحي اللاتيني . ومن البديهي أن الأدب اللاتيني الذي ساد أوروبا خلال القرون الوسطى كان ضعيفاً ، إذ كان مقصوراً على الموضوعات الكنيسية وأساطير القديسين المسيحيين . هذا هو الأدب الذي اكتسح في طريقه الأدب المجري الصميم ، وما يميزه من قصص رائعة لاتجد لها مثيلا الا في الأدب الشعبي القديم . كانت الثقافة والعلم وقفاً على الأديرة ، اما عامة الشعب ، فقد حرم من معرفة القراءة والكتابة . ولم يصادف العظاميون والملاك العقاريون حظاً أوفر في هذا المضمار . ولا عجب ، فقد كان الأدب قليل الشأن في نظر السادة الاقطاعيين الذين وجهوا همهم

الى امتطاء الجياد ومزاولة فنون القتال . كانت المجر جزءاً من اوروبا فأصبح حظها من الجهل والأمية مرتبطاً بحظ سائر اقطار أوروبا المسيحية . بل إن الشعراء الالمان الفوارس ، أمثال « ولفرام إيشنباخ » مؤلف ملحمة « برسيفال » كانوا أميين فدرجوا على املاء قصائدهم . وما زالت بعض الأديرة المجرية تفخر بما تحويه من مجموعات المخطوطات النادرة ، وفي مقدمتها دير باكوني بيل ، حيث بلغ عدد المخطوطات التسعين . ولكن أين هذا العدد بالنسبة الى مئات آلاف المخطوطات المدونة والمبوبة في خزائن الكتب بالاندلس الاسلامية ، والتي تناولت شتى الموضوعات من علم وشعر وفلسفة !

لذلك ، لاأستطيع ان أقول الكثير عن الأدب المجري في العصور الوسطى . لقد انتج القرن الثالث عشر الميلادي ، الموافق للقرن السابع الهجري ، مرثية نثرية القاها قسيس باللغة المجرية ، فكانت اول اثر ادبي اكتشف . بيد ان أسلوبها كان معقداً ركيكاً مما حمل على الاعتقاد ان الذي القاها لم يكن مجريا . ثم جاءت بعض الاساطير المسيحية المكتوبة باللغة المجرية فاكملت هذه الصورة . وهذا اللون من الأدب ، وإن كان بدائياً ، فقد بدا صريحاً اصيلا لا تشوبه شائبة المحاكاة والتقليد . ولما كانت اللاتينية هي لغة التعليم الممثلة في أشخاص القساوسة الكاثوليكيين ، فلا غرابة اذا عجزت عبقرية الشعب عن الظهور واضحة جلية .

ثم حدث تغيير جوهري بعد معركة الاصلاح . اذ أخذت سلطة الكنيسة تتزعزع من جراء التشكك ، اثر المذاهب العلمية

التي أخذت تتسرب من الشرق الاسلامي الى الغرب المسيحي عن طريق الحروب الصليبية . لقد عاد الفوارس من بلاد الشام حاملين معهم تجارب مثيرة المدهشة : أسلحة جديدة ، وتحصينات جديدة ، وطقوساً جديدة ، وآراء جديدة : كالجواد العربي الأصيل ، والشعار العربي ، والفكرة الاسلامية عن الشجاعة والفروسية ، والآثار الادبية للاسلام العربي . فلولا قصص « الف ليلة وليلة » لما وجد بوكاتشيو الايطالي ، ولولا أبا العلاء المعري لما استطاع دانتي انتاج مؤلفاته الرائعة . لقد كان للأندلس القدح المعلى في تقدم العلوم والطب والفلسفة في اوربا خلال العصور الوسطى ، اذ تتلمذت اوربا بأسرها على جهابذة الحكماء العرب ، أمثال ابن سينا وابن رشد وابن باجه . وقد تناول ابن طفيل في كتابه « حي بن يقظان » الموضوعات التي طرقها دانيال دي فو في كتابه « روبنسون كروزو » بعده بزمن بعيد ، وعبارة « صودا » في اللغة اللاتينية في القرون الوسطى ، بل وحتى في مؤلفات القرن السادس عشر ، لاتعني شراب الصودا ، بل « الصداع » الوارد في كتاب ابن سينا وأسبابه المختلفة .

وعندما اخذ مصباح العلم الاسلامي يتأرجح وكاد يخبو ، مكتسحاً في طريقه أعظم عبقريات الانسانية ، جاء ابن خلدون فأشعل ضوءه في اوربا ، ونشر مبادىء حرية الفكر ، وشعار النبي (صلى الله عليه وسلم) : « لارهبان في الاسلام » . وكانت صيحته المدوية نذيراً لطغيان الكنيسة ، فشجعت ذوي الهمم الوثابة ، على

تنظيم جماعات حرة اساسها الايمان المجرد من كل شائبة ، جماعات حرة كالجماعات الاسلامية سواء بسواء ، تختار وعاظها على اساس دينهم ، أي على اساس الكتاب المقدس . وقد أطلق على هذه الحركة اسم « حركة الاصلاح » ، فأيقظت الروح الفردية والروح الوطنية ، وترجمت التوراة الى اللغات القومية ، حتى يستطيع كل فرد ان يفهم دينه على حقيقته . فالشعب الذي ظل في منأى عن دينه من جراء جهله اللغة اللاتينية ، أصبح يستطيع ان يحكم بنفسه عما يجب ان يؤمن به وعما يمكن تركه للقساوسة . هكذا استيقظت اوربا من سباتها العميق ، وتفتحت اعينها للعلم ، متأخرة مئات السنين عن المسلمين الذين بدأوا منذ القرن الثامن ، يعلمون القرآن الكريم للاطفال في « الكتاتيب » وفي المساجد الكبرى ، كالأزهر الشريف ، وقد نسجت على منواله الجامعات اللاتينية في العصور الوسطى .

كانت حركة الاصلاح استهلالا لعهد جديد في اوروبا . ونستطيع أن نؤكد في شجاعة تامة ، ان الأدب المجري بدأ وقتئذ . لم تكن الحرب مجرد معارك في ساحة الوغى ، بل كانت أيضاً معارك كلامية . فقد أخذ البروتستانت والكاثوليك يتساجلون ويتقارعون الحجة بالحجة ، والبرهان بالبرهان في شدة وعنف ، حتى فاق الخطر صليل السيوف . لكن المساجلات أدت الى نتائج عظيمة الشأن ، اذ كان النقاش يدور بالمجرية لا باللاتينية . فاللغة التي ظلت غافية في سبات عميق ، لايتحدث بها الا القرويون ، اقتحمت في

تيه وفخر أبواب الأدب . وكانت متلعثمة في بادىء الامر ، لكنها مالبثت أن ارتفعت الى مستوى البلاغة وقوة البيان . وما حلت نهاية القرن السادس عشر ، حتى انتجت طرائف مازالت موضع الاعجاب حتى يومنا هذا . وهنالك شخصيتان عظيمتان تمثلان هذه النهضة المفاجئة : بالينت بالاشه Balint Balassi ، الشاعر المحارب ، وغاشبار كارولي ، مترجم الكتاب المقدس الى اللغة المجرية .

سجل القرن السادس عشر افظع كارثة عرفت في تاريخ المجر ، فقد اباد العثمانيون الجيش المجري في معركة « موحاج » عام ١٥٢٦ ثم سقطت عاصمتهم « بودا » في ايدي الاتراك في سنة ١٥٤١ ووقعت سهول المجر الداخلية الوسطى تحت الحكم العثماني ، بينما ظل الجزء الكائن غربي الدانوب خاضعاً لسيادة أسرة هابسبورج . وانقسم شعور الشعب أيضاً الى قسمين . فقد اتجه المجريون الصميمون نحو المسلمين الاتراك ، نظراً الى توجسهم شراً من جانب حكومة هابسبورج الكاثوليكية ، فعقدت امارة ترانسيلفانيا معاهدة مع السلطان . ثم نشبت المعارك الدامية بين جنود الهابسبورج والانكشارية الاتراك في اراضي المجر ، فخربت البلاد وأصبحت أثراً بعد عين : دمرت القصور الحصينة وهدمت الجدران المنيعة ، وأخذ الاتراك والمجر يتبارزون وجهاً لوجه مما أدى الى انهيار الحضارة المجرية ، وتمزقها اربا اربا . بيد أن الايام القاتمة والآلام المبرحة التي عاناها الشعب ، قد وجدت منفذاً في الأدب . فالى جانب المناقشات الدينية المملة القائمة من فوق

المنابر بين القساوسة الكاثوليكيين والوعاظ البروتستانتيين ، سمع صوت الشعب يرتفع عالياً . فأنجب من العلوم عبقرية بالينت بالاشه Balint Balassi الرائعة . كان هذا الكاتب من الفوارس الأشراف ، وقد عرف حق المعرفة بين افراد معسكرات المسلمين الأتراك ، حيث تعلم كثيراً من الشعر الشرقي ومن اشعار الغزل التي كتبها باللغة المجرية . وفي ذلك الوقت ، حيث سيطر نفوذ القساوسة ، كان ينظر لشعر الغزل كأنه رجس من أعمال الشيطان . لكن قيثارة بالاشه ذات النغمات الشجية نفثت فيه الحياة ، خاصة وان ذلك الشعر كان مزيجاً متناسقاً من الثقافتين ، اللاتينية والجرمانية موضوعاً في قالب شرقي رائع . وقد جمع بالاشه أيضاً بين الاسلوب الابتدائي والأسلوب الغنائي . كان صديقاً المسلمين الأتراك وعدواً لأسرة هابسبورج الكاثوليكية فارتد عن دينه أكثر من مرة في معمعة الحروب . لكنه كفر عن ذنوبه بان مات بطلاً مغواراً . وقد مر بعدئذ شعر الغزل بفترة ركود امتدت اجيالاً ، ثم عاد الى الظهور مطبوعا في القرن التاسع عشر .

كان بالاشه اول شاعر مجري اكتشف جمال الطبيعة وعبر عنها بأوصاف حية . لقد تغنى بالحقول السندسية الخضراء وبالغابة الوارفة ، وردد تغريد الطيور في ضوء الشمس الساطعة والنجوم المتألقة . ففي كل هذا ، كان بلا مراء تلميذاً للأدب الشرقي الذي لايجارى في الاعجاب بجمال الطبيعة . ونعلم بلا شك أن الشعر العربي

باليت بالاشه : أول الشعراء المجربين المجيدين

أنتج الروائع في وصف الطبيعة .

ترجم غاشبار كارولي Gaspar Karoli الكتاب المقدس الى اللغة المجرية بعد ان حاول ذلك قبله كثيرون من العلماء البروتستانتيين الذين تعمقوا في دراسة اللغات العبرية والآرامية والعربية واليونانية. فأسلوبه — بالرغم من صعوبته وغرابته على آذاننا الآن — ظل لزمن طويل نموذجا للشعب المتدين الواسع الادراك ، وما زال حتى الآن باقياً في أسلوب الخطابة والكتابة ، لدى الأتقياء من الناس . بل ما زال وقع نغماته يثير الخشوع في القلوب بالرغم من تقادم عهده.

وقد أنتج الجدل الديني ثماره في ميادين ما كان ينتظر أن يصل اليها . فشأنه في ذلك شأن المعتزلة في سالف الازمان. واستطاع الجدل ان يحمل الشعب على بحث الأمور بروية ودقة ، والتعمق في معنى الكلام ومبناه ، ودراسة الكون وأصله ومسبباته . وكانت حروب الاصلاح معاصرة لنتائج احد المخترعات التي أدت إلى انقلاب لم يسبق له مثيل في العصور السابقة : الا وهو آلة الطباعة . كانت مؤلفات « مارتن لوثر » زعيم الاصلاح العظيم ، اول كتب طبعت في المانيا ، وما لبثت الثقافة ان انتشرت سريعاً بوساطتها . اصبحت الكتب في متناول الجميع ، حتى افقر طبقات الشعب ، نظراً إلى ثمنها الزهيد . ثم جاء اكتشاف البارود ، فكان نذيراً بالقضاء على سيطرة الاقطاعيين . إذ صار في امكان اقل القرويين شأناً ان يقتني بندقية . مما جعل درع الفوارس ضعيف الجدوى في دفع الأذى عنهم . تلك كانت الخطوة الاولى في سبيل الشعبية (الديموقراطية).

أما الخطوة الثانية الحاسمة في سبيلها ، فكانت اختراع آلة الطباعة . لقد ولى الزمن حيث كانت الافكار وقفاً على القساوسة والأديرة ، فاتسع نطاق التفكير حتى شمل النقد والمنطق ، وتطور إلى التشكل . ثم جاء ديكارت — أو كاتيزيوس Castesius كما كانوا يسمونه وقتئذ باللاتينية — وتحدى كثيرين من المتعصبين بعبارته المشهورة : انني افكر ، إذن فأنا موجود . كانت هذه العبارة شعاراً ، ومالبثت أن تطورت الى مذهب ، وهو مذهب العقليين . أخذ المتدينون يتخوفون بادىء ذي بدء من هذه الخطوة الجريئة ، ظناً منهم ان مذهب العقلية ما هو الا دعامة جديدة للدين . فالحقيقة ان هـــذا المذهب لا يهدم الدين بل يؤيد العقائد الدينية بالبراهين العقلية ، كما فعل الحكماء المسلمون ابن رشد وابن باجه وابن خلدون منـذ اجيال مضت .

وقد اتخذ البروتستانتيون من مذهب ديكارت سلاحا حاداً في كفاحهم ، اذ ترجم جون اباتزاي جري فلسفته الى اللغة المجرية ، ثم شهد القرن السابع عشر عودة الكاثوليكية الى الحياة في المجر . وبعد ان كان انقسام الشعب مقصوراً على الشئون السياسية ، انقسم ايضاً في الأمور الدينية . فالمجريون في السهول وصغار الملاك — بحكم استقلالهم عن اسرة هابسبورج — استمعوا الى الوعاظ البروتستانتيين واعتنقوا مذهبهم . والقرويون المقيمون في المجر الغربية — التي لم يحتلها المسلمون الأتراك — اضطروا الى اتباع دين ملاك الأراضي الموالين لأسرة هابسبورج الكاثوليكية المذهب ، وكانت الظروف

الاقتصادية والاجتماعية أيضاً من العوامل المسيطرة على تقرير اختيار العقائد الدينية .

وجدير بالذكر ان المسلمين الاتراك الذين كانوا مسيطرين على الجزء الأكبر من البلاد ، لم يتعرضوا قط لحياة رعيتهم الدينية ، بل تركوا لهم الحرية التامة في مزاولة شعائرهم . بيد أن كثيرين من المجريين اعتنقوا الاسلام مما ادى الى دخول كلمات تركية عديدة ضمن مفردات اللغة المجرية . وقد ترجمت مؤلفات متعددة من التركية إلى المجرية ، وتعلم باشاوات بودا اللغة المجرية ، متخذين اياها اداة للمكاتبات الرسمية .

كان القرن السابع عشر مطبوعاً بطابع المذهب العقلي ، ولذلك لم يزدهر الشعر ، ولم يجد سبيلا سهلا الى القلوب . والشاعر المجري الوحيد الذي بزغ نجمه في ذلك العصر هو ميكلوش زرينجي Miklos Zrinyi ، اذ كتب ملحمة عن حصار الأتراك لحصن دافع عنه جده ولاقى فيه حتفه أمام السلطان سليمان القانوني . كان الشعر الحماسي في حالة انحطاط خلال القرن السابع عشر في أوربا ، فجاء هذا الانتاج الأدبي المتأخر لأداء غرض خاص ، الا وهو ايقاظ الوعي القومي ، ولم يقصد منه الاجادة في الشعر . ورغم ذلك ، فقد ظل أثره باقياً وما زالوا ينوهون به ويشيدون بذكره حتى يومنا هذا .

تعتبر نهاية القرن السابع عشر نقطة تحول في تاريخ اوربا . اذ عقد صلح ويستفالن في سنة ١٦٤٨ فانتهت حرب الثلاثين سنة ،

لكن أوروبا لم تستطع أن تتنفس الصعداء الا بعد مضي اربعين سنة أخرى . لقد أديرت حرب الثلاثين طبقاً لخطة الانهاك ، فلم تقرر مصيرها معارك فردية ، بل وضعت خطط مؤداها تخريب كل فريق لأراضي الفريق الآخر الى ان يختنق الفريقان . وقد جاءت النتائج مخيفة مفزعة . اذ تحولت المروج الغناء والحقول الخصبة والغابات الكثيفة ، الى أراضي قاحلة لا زرع فيها ولا ضرع . وهبط عدد سكان المانيا بعد انهاكها الى أربعة عشر مليوناً . كان من الضروري استئناف النشاط على أسس جديدة ، لكن السلام لم يسد بعد . ذلك لأن الأمراء الألمان الخاضعين لاسرة هابسبورج ، بعد أن تصالحوا ، اشتبكوا معاً في حرب ضد الأتراك الذين هددوا فيينا في سنة ١٦٨٣ . وأخيراً هزموا هؤلاء الأمراء هزيمة نكراء ولم تمض سنوات معدودة حتى قذف بهم نهائياً خارج اراضي المجر وصدوا الى البلقان .

كانت حالة المجر المحررة مدعاة للاشفاق . اذ نزلت بها الكوارث ألواناً ، فهاجر بعض سكانها وهلك الآخرون . وان اردنا تصوير المصير الذي آل اليه أولئك القوم كفانا ذكراً ان المقاطعات المجرية الخصيبة ، التي يسكنها الآن مليون من الأنفس في رغد ورخاء ، هبط عدد سكانها الى تسعين اسرة !!

وبعد ان ولى الحكم العثماني من البلاد ، سارعت اسرة هابسبورج الى اقتطاع المناطق القاحلة الجرداء لسكان أجانب ، اكثرهم من الألمان . وقد وهبت مساحات شاسعة الى بعض المخلصين

من الاشراف ، فخلقت من جراء ذلك طبقة اقطاعيـــة جديدة . هكذا عاد الشعب فوقع تحت سيطرة كبار الملاك ، فتسرب اليأس الى النفوس اثر الاستعبـاد السيـاسي والاقتصـادي . كان البروتستانتيون مضطهدين ، والشعور الوطني المجري الذي لم يمسّه المسلمون قط ، قد دهس بالاقدام بأساليب مزرية . وما لبث اليأس أن تحـول الى غضب شمل المجريـــين والفلاحين والأشراف . فتسلحوا وتحالفوا ضد طغيان اسرة هابسبوج واعلنوا عليها الكفاح بقيادة إمره توكولي Imre Thokoly ودافوتزي في سبيل الحرية السياسية والدينية . وقد وقع الحمـل الاكبر من المعركة على عاتـق الفلاحين المجريين . ثم قدم لويس الرابع عشر ملك فرنسا — الذي كان يحارب أسرة هابسبورج في الغرب — مساعدة ضئيلة الى المجريين المتمردين . لكن انهزام الجيوش الفرنسية وعقـد صلـح أوتريشت غدانها ، لم يتركا امـلاً المجريين في الاستقلال . ففـــر توكولي ودافوتزي من البلاد ، ولجآ إلى الاستانة محتميين بالسلطان .

والزعيمان النبيلان اللذان قادا معركة استقـلال المجر الأولى قد أغمضا أعينها الى الابد على ارض اسلامية ، حيث أكرم خليفة المســـلمين وفادتها ، وقدم لهما العون الأدبي والمـادي . وقد رأى رودوستو Rodosto اللاجئين المجريين على ضفـاف بحر مرمرة ينتظرون بفروغ صبر حدوث تغيير سيـاسي ، من شأنه ان يعيد الحق الى نصابه في بلادهما . وما زال الشارع الذي عاش فيه اللاجئـان الوطنيان ، يحمل اسم شارع المجر (مجار صوفاغجي) . ولقد احاط

اخواننا المسلمون في ذلك الوقت هذين اللاجئين بكل اجلال وتكريم ، صادرين من قلب مخلص عطوف . ولا غرو ، فتلك هي تعاليم الاسلام ، وما زال المجريون يحفظون أجمل ذكرى لهذا الصنع الجميل .

لقد أرسل بحر مرمره نسماته الهادئة بعيداً حتى بلغت قلب المجر ، إذ خلد كيليمين ميكيش Kelemen Mikes ذكرى الشرق الاسلامي في « رسائله من تركيا » وهي قطع أدبية ينعكس فيها جمال ذلك الشرق الرائع ، وهدوءه الجذاب . هذا الى جانب مافي تلك الرسائل المنثورة من شعور وطني فياض . وما زالت سطورها الأولى على شفاه تلاميذ المدارس الى يومنا هذا ، حيث يقولون « انني لاسمع وحدي خرير بحر مرمره الذي يخفف آلامي » .

وقد أنتجت حرب الاستقلال ، رغم مافيها من بؤس ، لوناً أدبياً جديداً ، هو الأدب المعبر عن آلام الشعب وشقائه . وقد قال أحد النقاد : إننا اعتباراً من ذلك الوقت ، بدأنا نعرف أعظم الشعراء شأناً ، هو « الشعب » . فالأدب الحقيقي يجب أن ينبعث من قلب الشعب ، وأن يجد تعبيره على لسان الشعب . لقد أنتجت حروب الاستقلال شعراً أدبياً أصيلا مفعماً بالشعور الوطني العميق الفياض . ومعبراً عنه بأسلوب بسيط صريح ساذج . وكان طابعه الانفعالي مستمداً من الحالة المحزنة التي آلت اليها البلاد ، ومن كارثة الانهيار التي انتهى اليها الكفاح في سبيل الاستقلال والتحرر من الاستعباد الأجنبي .

فالشعب اليائس لايترنم الا بالاغاني الحزينة ، وهكذا كان أمر الشعب المجري . لقد حرم من حريته الوطنية فأخذ ينظر الى تاريخه المجيد ويوازن بين الماضي والحاضر . عندئذ تملكت نفسه المرارة ، واجتاحته الآلام واطلق لخياله العنان ، فتفتح عن أدب روائي ، أجزل فائدة لتاريخه القومي من الأدب البحت . لقد أصبح لزاما على الشعب أن يعيد بناء مدنه المخربة وقراه المنهارة . وفي مثل هذه الحالة ، يصعب على المرء أن ينتج روائع في الأدب .

حل القرن الثامن عشر فكان فاتحة عهد سلام نسبي ، مما ساعد حكم أسرة هابسبورج على الاستقرار وعلى تبوؤ مركز مرموق بين الملوك والأمراء الأوربيين . وتحسنت الأحوال الاقتصادية نوعا ما ، فشيدت المباني الفخمة والقصور المنيعة على طراز غريب شاذ . واكسبت البلاد روعة وبهاء ، وكستها حلة من السناء . وكانت ماريا تيريزا Marie Theresia ، ملكة المجر الجديدة ، هي الرمز الحقيقي لهذه العظمة . ففي سنة ١٧٤١ حفزت روح الفروسية والبسالة في الأمة المجرية ، اذ ظهرت وسط الجموع ، حاملة ولي عهدها بين ذراعيها ، وطلبت الى المجريين معاونتها في الكفاح المستميت ضد فريدريك الأكبر ، ملك بروسيا . وهذه بلا مراء شجاعة جديرة بالاعجاب والاطراء ، خاصة وانها صادرة من امرأة . وأظهر المجريون روحا حماسية شرقية ، مضحين بدمائهم وأرواحهم في سبيل الدفاع عن الملكة . واستمرت الحرب سنوات طويلة ، امتاز فيها الخيالة المجريون بالبسالة

والاقدام ، ونازلوا الأعداء منازلة شهدت لهم بالبراعة في فنون القتال . ومكافأة لهم على صنيعهم ، شكلت الملكة من النبلاء المجريين ، فرقة حرس خاصة ، للسهر على قصرها في فيينا . وكان الغرض الذي ترمي اليه الملكة من جراء ذلك ، هو اخضاع هؤلاء المجريين الافكار الغربية الحديثة بحكم اتصالهم المباشر ببيئتها ، مقاومة روح التمرد التي دفعتهم الى القيام بثوراتهم السابقة . أرادت الملكة احلال روح الأنوثة في نفوس المجريين ذوي المراس الشديد والوعي الحي . لكن النتيجة جاءت على نقيض ذلك ، وقد تأتي الرياح بما لاتشتهي السفن .

فوجود حرس الشرف المجري بجوار قصر هابسبورج ، أتاح لأفراده فرصة الالمام بالأدب الفرنسي الزاهر ، وارتشاف أفكار الموسوعيين (الانسيكلوبديين) الفرنسيين . فكان لمصنفات فولتير فعل السحر على جورج بيشنهي George Bessenyei من أشراف المجر . فحاول تأليف مسرحية مؤثرة ، ناسجا على منوال استاذه الروحي . وفي ذلك الوقت ، كانت المسرحيات مجهولة من المجريين ، إذ كانت بلادهم خلوا من المسارح . وقد وضع هذا الكاتب بعض القصائد التعليمية وقصة سياسية ، الغرض منها ايقاظ الشعب من سباته العميق . واقترح انشاء مجمع علمي مجري تشجيعا للدراسات العلمية باللغة المجرية . وكان له عدد كبير من التلاميذ ، نذكر منهم باروتزي Baroczy وبارجاي Baresay واورتزي Oresy ، وغيرهم من أفراد حرس الشرف الذين أنتجوا آثاراً أدبية قيمة . أما في

هنغاريا نفسها ، فقد وضع الراهب آنوش Anyos بعض المراثي المؤثرة التي تمزق القلوب من شدة الاسى .

ويرجع لحرس فيينا الفضل في فتح النوافذ ، التي سمحت للهواء الطلق بالهبوب من فرنسا الى المجر . وفي ذلك الوقت ايضاً ، وضع راهب آخر يدعي دوغونيج Dugonics قصة مجرية ، على غرار الأدب الالماني ، الذي أخذ ينال حظوة كبيرة في الاوساط الشعبية . والمصنف الذي وضعه هـــذا الراهب هو كتاب ضخم يروي حوادث مثيرة ، بأسلوب خيالي وشعور مفعم . وقد انتشر هذا الـكتاب في الطبقات الشعبية ، بخاصة بين النساء المجريات ، فأصبح عنوانه « ايتلـكا » ، اسماً محبباً ، وأطلق على البنات عند مولدهن . هكذا اتخذ الأدب الالماني لباساً مجرياً وسار بخطوات واسعة في طريق الانتصار .

بدأ النسيم العليل يهب في سهول المجر . فقد اتسع نطاق المدن ، واستردت التربة خصبها ، وارتفـــع مستوى المعيشة في الطبقة الوسطى ، فوجدت النساء فراغاً من الوقت للتسلية وقراءة الكتب ، وتذوق الأدب المجري . كان تمثيل الشعب مقصوراً فيما مضى على طبقة الاقطاعيين . أما الآن فقد تقدمت الطبقة الوسطى ، فأصبحت قادرة على تشجيع الانتـاج الأدبي . في العصور السابقة ، كان هنالك مؤلفون فقراء ، ولم يوجد جمهور قراء . أما الآن ، فقد أصبح هنالك جمهور يقرأ ويستمع ويطالب بالمزيد .

ظهرت قصص عديدة ، متأثرة بالأدب الألماني ، لكنها أعادت

احياء العقلية المجرية ، واخذت تصف حياة الشعب — الطبقة العليا والطبقة الدنيا على السواء — ولم ترتفع هـــذه القصص الى أوج السماء ، بيد أنها كانت موفقة من حيث مواجهتها لاحتياجات الشعب. امتازت هذه القصص بالطابع المنطقي ، ولم تخل من روح الفكاهة، بخاصة عندما تعمقت في تحليل حياة الشعب تحليلا دقيقاً . وقد أخذ نطاق اللغة المجرية يتسع متمشيا مع احتياجات الأدب .

حلت نهاية القرن الثامن عشر فنشرت الفزع في أوربا بأسرها ، اذ ثار مستعمرو أمريكا ضد استغلال التاج البريطاني ، وأعلنوا استقلالهم عن الدولة البريطانية . وكان انتشار الأنباء بطيئا آنئذ ، ونظرا الى عدم وجود خطوط حديدية أو مواصلات بحرية بخارية أو اذاعات لاسلكية ، فلم تكن أنباء أمريكا اذن هي التي فتحت أبواب سجن الباستيل .

كان المجتمع الاوربي مؤسساً على التمييز بين الطبقات . فكان هنالك أمراء لايتزاوجون الا بينهم . وكان هنالك كونتات وبارونات ونبلاء يفخرون بأنهم يعيشون بمعزل عن الشعب . والتزاوج بين أحد العظاميين وأحدى الفتيات الفقيرات لم يكن يحدث وقتئذ الا قيما ندر . فاذا حدث ، أدى للقطيعة التامة بين من يعقده وطبقته الاجتماعية . كان هنالك مثل دارج يقول : « يبدأ الانسان من البارونية » (وهي أدنى ألقاب الشرف) . وقد يصبح أحد محترفي التجارة أو المهن اليدوية متيسرا أو غنيا ، لكنه لن يحظ بالامتيازات التي كان يتمتع بها العظاميون والاشراف . لم تكن هنـالك أية

فكرة عن المساواة بين مخلوقات الله عز وجل ، فالآراء الاجتماعية المبشرة هي التي تقرر مصير أي مولود جديد . فانظر الى الفارق الكبير بين هذا النظام الاجتماعي المتأخر المنحط ، وبين تعاليم الاسلام وتقاليده التي تكفل المساواة للجميع ، وتضمن تكافؤ الفرص للجميع في هذه الحياة ، ماداموا يعملون بالوصايا السماوية ويعيشون حياة التقوى والصلاح ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . لقد دعا الاسلام لفكرة الحكم الشعبي (الديموقراطية) وعمل بها منذ ظهوره ، فكان له قصب السبق على فرنسا ، التي أعلنت بعد ذلك بألف سنة شعار ثورتها المعروف : « حرية — مساواة — أخاء » .

ان اسباب الثورة قد استمدت جذورها من أصول أعمق غوراً من حركة تحرير مستعمري امريكا من تدابير الضغط البريطانية . تحالفت عوامل عديدة في الكفاح ضد نظام أكل عليه الدهر وشرب ، وأصبح غير ملائم للعصر في نهاية القرن الثامن عشر في اوربا ، تحالفت عليه وكسبت المعركة النهائية الفاصلة . أما تلك العوامل العديدة فهي : العلوم ، وكشف اسرار الكون ، والافكار الفلسفية التي نشرها جامعو دائرة المعارف ، ونشوء طبقة متوسطة جمة النشاط نالت ثروة بفضل المخترعات الفنية . فتحررت واشتد ساعدها . بدأ بنو الانسان يحترمون الحقوق الممنوحة اليهم من الله عز وجل ، ويحتقرون الحقوق التي اختص بها لانفسهم ملوك متعجرفون وغالبا فاسدون سيئو الخلق .

انتشرت فكرة الاخاء والمساواة في اوربا ، حيث كانت الانانية مسيطرة على النظام الاجتماعي والاقتصادي . أما في المجر ، فكان الشعب منقسماً الى طبقتين : الأشراف الذين يملكون الارض نظير أداء الخدمة العسكرية ، والمعفون لهذا السبب من الضرائب ؛ والفلاحون الذين يكدحون في خدمة الارض ويرهقون بالضرائب الباهظة ، دون ان يتمتعوا بأي امتياز . وكان للاشراف محاكمهم الخاصة ، بل كان لهم الحق في محاكمة أتباعهم وتوقيع العقوبات عليهم . فمثل هذا النظام أصبح لا يتلاءم مع تقدم المعلومات الفنية . وحدثت الثورة الفرنسية فحسنت الخطط الحربية ، بأن أدخلت عليها نظام المعارك من خلف المتاريس ، ودربت الشعب على اطلاق النار واصابة الهدف . هكذا أصبح تنظيم الجيوش شرطاً أساسياً للصمود أمام المشاة الماهرين في الرماية . وهُزم الفوارس والأشراف المقاتلون بالسيوف والرماح ، بالرغم من شجاعتهم وبسالتهم . اذ انهم عجزوا عن مجاراة جيش من المشاة خفيف الحركة ، ومتفوق عليهم في الخطط الحربية . وأسطع مثال لهذا التفوق ، هو انهزام المماليك الابطال في معركة امبانة .

سار الادب المجري جنباً الى جنب مع الثورة . فحروب نابليون لم تقتصر على نقل الجيوش عبر أوربا ، بل نقلت اليها ايضاً الافكار والآراء . أما الادب المجري ، فقد سار في اتجاهين مختلفين : أحدهما ثوري ، والآخر ثقافي ، متأثراً بالادب الالماني . وقد نسج جوزيف كارمان Joseph Karman على منوال «غيته» في «آلام

فرتر » إذ وضع مصنفا عنوانه : « وراثة فاني Fanny » ، وهكذا فعل دايكا Dayke في مرثياته . ويرجع لكارمان الفضل في تأسيس أول مجلة ادبية في المجر ، اطلق عليها اسم « أورانيا » . وفي سنة ١٧٩٠ ، افتتح في بودا أول مسرح للتمثيل باللغة المجرية . وهذا الحادث جدير بالتسجيل ، اذ اخذت اللغة المجرية العامية تفسح الطريق أمامها ، وتسير الى الامام بخطوات سريعة . بدأ الممثلون والممثلات يجولون في انحاء البلاد ويوقظون الشعور الوطني من سباته العميق ، وينفثون روح الحمية والحماسة في النفوس . وكان الزعيم الأكبر في هذا المضمار هو فرنسيس كازينتزي Kazinesy . لم يكن هنالك صحف وقتئذ فاتخذ من مكاتباته وسيلة لتشجيع الشبيبة على الكتابة ، وترجم أروع المؤلفات وابدع المصنفات إلى المجرية ، عن الألمانية والانكليزية والفرنسية . لقد أخذ على عاتقه حملاً ثقيلاً ، وسجن سبع سنوات في سبيل آرائه السياسية ، لكن التنكيل والتعذيب لم يضعفا عزيمته فلم يتحول عن الهدف الذي يرمي اليه وهو : ايقاظ الشعب المجري من الجمود ، وبعث آمال جديدة في النفوس ، وقيادة الأمة في الطريق المؤدي بها إلى مجاراة أمم أوربا الغربية ثقافياً واجتماعياً .

واليه يرجع الفضل في محاولة خلق لغة مجرية صحيحة . لقد حال دون وجود أدب مجري صحيح ماتحويه اللغة من عبارات قديمة أو مشتقة من اللاتينية ، أو منقولة عن لهجة البوير الغليظة . فالافكار الحديثة في حاجة الى تعبيرات لغوية ملائمة لها . فابتكر كازينتزي

كلمات، واشتق كلمات أخرى من أصول موجودة . وقد لاقى كازينتزي بادىء ذي بدء اعتراضاً شديداً من جانب انصار المدرسة القديمة . لـكنه انتصر في نهاية الأمر ، فاكتسبت اللغة المجرية آلافاً من الـكلمات الجديدة ، ولا تزال هذه الكلمات مستعملة حتى الآن . لقد كُسيت جميع المصطلحات الخاصة بالعلوم الطبيعية والـكيمائية والفلسفية والفنية ، برداء مجري أصيل صميم . والمبتذل منها ما لبث أن اختفى من الوجود . اما التعبيرات الصميمة ، فقد سلكت طريقها إلى اللغة المجرية فاكسبتها قوة ، حتى أصبحت أوسع ثروة من اللغة الألمانية . فالمجريون يستخدمون الآن كلمات مجرية للتعبير عن «المسرح» وهي سينهاز لا « تياتروم » المستعملة في جميع اللغات ، وزئبق عبر عنها بهيجاني Higany ، وكلمة الليمان Allitmany معناها مفعول به ، و « آلان » Alany معناها المبتدأ به ، و « فجيتان » Vegytan معناها الكيمياء ، وآلاتتان Allattan معناها « علم الحيوان » الى غير ذلك من آلاف الكلمات المجرية الأصيلة التي لاتوجد في اللغات الأخرى ، مما اضطرها إلى اشتقاقها من اللاتينية أو اليونانية .

واللغة الوحيدة في العالم التي فاقت اللغة المجرية الحديثة ، من حيث الجمال والأصل الصميم ، هي بلا شك اللغة العربية الكريمة ، التي أصبحت الآن أداة للتعبير عن أعمق مشاعر الأمة وأفكارها ووعيها القومي . قال الـكونت سيجيني Széchenyi احد المصلحين المجريين : « إن الأمة تعيش بلغتها » .

وقد أدى تجديد اللغة المجرية إلى ايقاظ الشعب ، فانتج في زمن

وجيز ، مصنفات أدبية تضارع أروع المؤلفات في الأدب العالمي .

لقد نما الأدب المجري وترعرع غداة حروب نابليون ، وسأفرد بحثي التالي لهذا الموضوع .

٢ - عصر بيتهوفن شاعر الثورة

كانت حروب نابليون فاتحة عهد جديد في تاريخ العالم . فهي توازي من حيث أهميتها اكتشاف امريكا ، بل وتفوقه خطورة ، إذ انها أدت إلى تطورات ذات شأن في الحالة الاجتماعية والاقتصادية للجنس البشري . فما كاد نابليون يطأ بقدمه أرض مصر حتى استيقظت الروح العربية الغافية ، واقيمت قنطرة الوصل بين مصر واوربا . لقد كان الشرق الرائع استاذاً فيما مضى ، استاذاً تتلمذ عليه الأوربيون . أما الآن ، فان الشرق يتجه صوب الغرب ليسترد دَينا له في عُنقه .

ثم هزم نابليون وعاد النظام الملكي، واستقرت السلطة لأسرة هابسبورج، فانبعث في أوربا جو من الحُكم المطلق أحدث ردّ فعل شديداً من قبل الشعوب المشغوفة بالحرية . وقد ترتب على ذلك كفاح بين الحكومات الهادفة إلى تركيز السلطة ، وبين الشعب المقاتل في سبيل التحرر من السيطرة الباغية . لم يكن هذا الكفاح مجرد تنازع بين الافكار ، رغم ظهور شتى المؤلفات الفلسفية الداعية

بشدة إلى اعادة تنظيم المجتمع بالتدريج . انتشرت المذاهب الفردية والوطنية وذاعت فكرة الحقوق الانسانية والكرامة الشخصية ، بطريقة لاشعورية، اثر القوى المادية التي كانت تعمل خلف الستار بلا ضجة ولا ضوضاء ، ولكن في شدة واصرار ومثابرة . لقد ولت الروح الانتهازية الناشئة عن حروب نابليون ، واصبحت خزائن الدول خاوية إلى آخر قرش ، مما اضطر حكومة فيينا إلى خفض سعر العملة ، فحل الخراب بذوي الثراء . وهبطت أسعار المحاصيل الزراعية ، دافعة معها إلى الحضيض ملاك الأراضي الذين يعيشون من ريعها . عندئذ سرت روح السخط في الشعب ، وزادتها حدة تدابير الضغط وكبت الشعور التي اتخذتها الحكومة .

وفرضت الرقابة على الانتاج الأدبي ، فقيدت الحياة العقلية بسلاسل حديدية . وبلغ سوء الحالة مدى خطيراً جعل الاشراف الذين ظلوا حتى ذلك الوقت محتفظين بموقف محافظ ، يتألبون على الحكومة ويعرضون عن تأييدها . امتنع الملك عن دعوة البرلمان مدة خمسة عشر عاماً ، ووضع حكماً أساسه الارهاب والفزع . شكلت الحاميات المجرية من جنود أجانب ، وأخذت الشرطة السرية تتجسس على آراء الشعب ووجهات نظره ، وبذل القصر أقصى جهده لقمع أية حركة وطنية . وقد أدت هذه الأعمال إلى رد فعل خطير ، وبعد أن كادت مقاومة الاشراف المجرية تهدأ لزمن ما ، عادت إلى سيرتها الأولى . وقد ظهرت هذه المقاومة على شكل مطالب وطنية ، اليك بيانها : احلال اللغة المجرية محل اللغة اللاتينية في المناقشات البرلمانية،

وحرية احياء الماضي المجيد للشعب المجري المتمسك بالفكرة القائلة بأنه شرقي الأصل، رغم ثقافته الأوربية، والذي لن ينسى شخصيته الشرقية الفذة، وروحه المستقلة .

تأهب الحصان لكفاح مرير . فمن الجانب الأول، قوة الحكم المطلق وفكرة النظام الملكي المستمدة سلطة من الله . ومن الجانب الآخر، ارادة الشعب بأسره، ابتداءً من العامل الصغير إلى مالك الضياع والقصور . لقد اصطفت القوى المادية إلى جانب الشعب، لكن رجال السياسة لم يعترفوا بأثر هذه القوى الفعالة في الثورات التاريخية، وهذا هو شأنهم في كثير من الأحيان .

اكتشف «وات» القوة البخارية، وأنشأ ستيفنسون أول خط حديدي، وأنزل فولتون إلى البحر أول باخرة . لقد بهرت هذه المخترعات الشيطانية ابصار العالم، وتملك الفزع النفوس لنتائجها البعيدة المدى . ولنذكر على سبيل المثال القصة التالية : اقترحت كلية الطب بجامعة المانية انشاء حاجز خشبي على جانبي الخطوط الحديدية، لحماية المسافرين من الدوار الذي يصيبهم من منظر الاشجار والمنازل التي تبدو كأنها سائرة بسرعة خاطفة أمام أعينهم ،ويلاحظ أن سرعة القطارات كانت لاتتجاوز وقتئذ خمسة عشر ميلاً في الساعة !

وقد أحدثت الاكتشافات العلمية ثورة صناعية، إذ حلت الالآت محل الأنوال اليدوية، فترتبت على ذلك ثورة اجتماعية عجز عن مقاومتها نظام الحكم المطلق .

لم تلبث موجة التطور العالمية أن اجتاحت المجر . كانت البلاد خالية من المصانع ، نظراً الى طابعها الزراعي البحت . وقد ساء استغلالها من جراء نظام الاقطاع واهمال الاقطاعيين . لذلك عجزت عن مجاراة الغرب في تطبيق نظام الزراعة بالآلات . فالعوامل الاقتصادية هي التي هدمت صرح المجر الاجتماعي من أساسه .

والآن لنلق لمحة عابرة على المجتمع المجري في السنوات العشر الأولى من القرن التاسع عشر . كان الشعب منقسماً الى عدة كتل : كتلة عديدة من الفلاحين المستعبدين ، وفريق من سكان المدن المتمتعين بشتى الامتيازات ، وأخيراً طبقة الأشراف . كانت طبقة الاشراف هي الشعب الحقيقي ، اذ درج أفرادها على الاقامة في منازلهم الريفية ، لمراقبة أتباعهم أثناء خدمة الأرض . كانوا معفيين من الضرائب ، واعتادوا قضاء أوقات فراغهم في الصيد ، وتناول الطعام ، والتدخين ولعب الورق . وقلما كنت تتخيل صورة أحد الاشراف المجريين إلا والغليون بين شفتيه . وقد يتعلمون اللاتينية ، أما الذين يعرفون الألمانية ، فقلما كانوا يعنون بقراءة الصحف الأجنبية ذات الاسلوب الجاف ، بخاصة وأن الرقابة قد دأبت على تشويه مايكتب فيها . والنزر اليسير من الاشراف كان يقيم في بودابست ، عاصمة البلاد التي كانت بعيدة جداً في التلال ، فاتخذت مركزاً للمحكمة العليا دون سواها ، الى جانب أعمالها التجارية . وكانت التجارة غالباً

في أيدي اليونانيين والأرمن وبعض اليهود .

وإذا لاحظ أحد الأشراف في ابنه ميلاً لتلقي العلم ، ألحقه باحدى المدارس العليا . وظلت أكثر المقاطعات طويلا محرومة من المدارس . أما معاهد التعليم الأولي ، فكانت تحت إشراف الكنيسة ، بيد أن الافكار تستطيع التغلب على الحواجز الفاصلة بين البلاد . فقوة البخار نفذت البخار في الهواء ، ولن يستطيع سور الصين نفسه أن يمنع وصول نداء الزمان الى الشعب المجري المغلوب على أمره .

تحفّز بعض الأشراف المضغوط عليهم من جانب أسرة هابسبورج ، فأخذوا يناضلون مطالبين بحق المجريين في التثقف . كان في بودابست كرسي للأدب المجري . لكن القصر عيّن فيه استاذاً لا هم له الا إقامة العقبات في طريق تقدم الادب . وأول كرسي للأدب المجري انشىء في سنة ١٨٣٧ بمدينة ديبريتسين Debrecen وكانت أعظم خطوة الى الأمام هي التي سجلت سنة ١٨٢٥ اذ انشىء بقرار من البرلمان مجمع (أكاديمية) للعلوم على أثر تقديم الكونت سجيني Széchenyi ما أغلّته أملاكه الواسعة من ايراد لمدة سنة . وفي خلال تلك الدورة البرلمانية ، صدر قرار باعتبار المجرية لغة رسمية للبلاد ، بدلاً من اللاتينية .

مما لاريب فيه أن الضغط يؤدي الى الانفجار . لقد التهب شعور المجريين ، فأخذوا يتطلعون للاعمال التي تدر عليهم الربح

وترفع مستواهم الاجتماعي وكيانهم الانساني . وكانت أول خطوة خطوها الى الأمام هو انشاء دور الطباعة .

لقد تولت تلك الدور طبع ثمار النهضة الأدبية واليقظة القومية. لكن المؤلفين كانوا غالباً في حاجة الى جمع الاشتراكات مقدماً ، مما حال دون ظهور أي كتاب مالم يجمع خمسمائة اشتراك على الاقل. ازاء هذه الحالة أصبح لزاماً على المؤلفين ان يكافحوا في جبهتين : كسب قوتهم اليومي ، واعلان آرائهم عن طريق مصنفاتهم الأدبية .

كان الجو الادبي في أوربا ، غداة حروب نابليون ، مشبعاً بالروح الابتداعية (الرومانتيكية) . وكانت مميزاته الطموح لحياة أقرب الى المثالية ، حياة تخيلية ، متنائية عن الحقائق الجافة ، التي نشاهدها في حياتنا اليومية الرتيبة . فاذا نظرنا بامعان الى تاريخ الجنس البشري لوجدنا دائماً قوتين متنافستين تعمل احداهما ضد الاخرى ، ولكنها تؤديان كل من جانبها الى تنشيط حركة التقدم في العالم . وفي مقدمة مميزات القرن التاسع عشر ، انه شهد مخترعات فنية وعلمية لم يحلم بها من ذي قبل ، وقد قربت هذه المخترعات بين الانسان وبين الحقيقة الواقعة ، وانتهت الى غزو المادة واخضاعها لارادته . ومن جهة أخرى ، كان عالم الحقائق هذا تواقاً لتنظيم التفكير الانساني . وقد عمل على ادراك هذا الهدف فريق من كبار العلماء والمفكرين ورجال الاقتصاد والمصلحين الاجتماعيين ، أمثال : آدم سميث وريكاردو وبنتام وستيوارت ميل

وسان سيمون ، وفوريه وغيرهم ، ممن وضعوا الأسس والمذاهب التي أرسيت عليها الأنظمة في المجتمع الانساني ، فأصبحت متلائمة مع الظروف الجديدة . نعم إن هذه الأنظمة كانت تجريبية ، ولكن يمكن اعتبارها ابتداعية (رومانتيكية) لأن أساسها هو التخيل بأن الانسان يستطيع الاعتماد على التأمل العلمي لتنظيم شئونه وتحقيق سعادته .

وقد أدى الضغط من جانب الحكومة الى اتجاهات ابتداعية (رومانتيكية) في الأدب وفي الفن على السواء . إذ حاول الكتاب أن يلجوا في الماضي ، فأخذوا يصورون مجده وبهاءه . عندئذ رنوا بأنظارهم إلى الشرق الاسلامي، ذلك الشرق الذي اجتذبهم اليه منذ اجيال وما زال يجتذبهم . فالشرق الاسلامي ، كما يتخيله هؤلاء الكتاب والشعراء ورجال الفن ، عالم مفعم بالعظمة والسعادة والروعة والجلال ، عالم تعيش المرأة فيه حياة غامضة في عزلة « الحريم » الموحشة . فكل شيء في ذلك الشرق شعري تخيلي . وقد فتح هذا الخيال طريقا للاستشراق ، فأخذ العلماء يدرسون العلوم ، ويترجمون البحوث الشرقية ، ويصنفون كتب النحو . فكل شيء غير واقعي أصبح جذابا وتخيليا . وقد كنت وما زلت اشعر بميل خاص نحو القرن التاسع عشر ، نظرا إلى طابعه التفاؤلي الساذج . فالانسانية فخورة بالتقدم العلمي الذي تم في خلاله .

وقد شهد القرن التاسع عشر ايضا نشوء طبقة اجتماعية متوسطة ، تمتاز بالثراء وسعة العيش ، إلى حد انها ضارعت الطبقة

العظامية أهمية وشأناً . كما شهد قيام طبقة من العصاميين تمتاز بالوعي القومي والكرامة الشخصية . لقد ظهرت الروح الوطنية ، وتحالف المتحدثون بلغة واحدة ، وسحقوا تحت اقدامهم الحقوق الوراثية البالية ، وقاوموا الفكرة القائلة بأن الملوك مبعوثون من الله ، اولئك الملوك الذين كانوا يعاملون رعاياهم معاملة الحيوان الأعجم .

وبدهي ان العصر الابتداعي (الرومانتيكي) ، لا يمكن أن يستقر دون ان يراق على جوانبه الدم . لقد حاولت ايطاليا ان تتخلص من نير البابا ، وقاومت المانيا منافسات صغار الامراء المنقسمين بعضهم على بعض ، وكافح المجريون لاسترداد استقلالهم . اما ابطال المكافحة فهم الشعراء والكتاب المجريون ، وقد وجدوا في اللغة المجرية المجددة اداة ملائمة للتعبير عن افكارهم ، فاستعملوا هذا السلاح ببراعة جديرة بالاعجاب . وفي مقدمة هؤلاء الشعراء ميخائيل غكناي وتيز Gokonai Vitez ، ذلك المعلم البروتستانتي التائه ، الذي لم يجد لنفسه الهائمة استقرارا في مجتمع قتله الركود وانتابه الجمود ، فارتفع صوته مترنما بقصائد رائعة تعبر عن شعوره العميق . أما قصائد الغزل التي كتبها ، فهي تعبر عن اليأس بأسلوب جعل مؤلفها يتبوأ القمة في فن الشعر الغنائي . وما زال الشعب المجري يردد الحانه الشجية وهي صدى لشعور الشعب وآلامه وآماله ، عبر عنها بأسلوب طلي ، وايقاع جذاب . وعند الاحتفال بذكراه لمناسبة مضي مائة وخمسين سنة على وفاته ، اكتشف أنه درس الشعر الشرقي ايضا ، وانه وضع بحثاً قيماً عن شعراء العرب ومؤلفاتهم . وما زال يعد من أعظم

الشعراء الغنائيين ، وهو الذي مهد الطريق لاسكندر بيتوفي ، الذي جاء بعده، فكان وحيد زمانه وفريد عصره ،وفخر الأدب المجري .

كان غكناي يمثل الطليعة في الشعر الغنائي المجري الحديث . أما اسكندر كيشفالودي Kisfaludy ، فقد عبر عن ادب الاشراف في كتابه الملىء بالشعور الفياض وعنوانه « غرام هيمفي » Himfy وهو متأثر بقصائد الشاعر الايطالي بترارکا . « وغرام هيمفي » نداء صادر من قلب مكلوم ، يشكو مرارة الحب، ويبكي الهجر والجفاء . أما شقيقه البائس السيء الحظ ، كيشفالودي فقد اسس ندوة ادبية في بودابست سماها « اورورا » أي الفجر ، وانشأ ايضاً مجلة ادبية، فتحت صدرها لانتاج الأدباء الشبان، ممن هجروا الاساليب الاتباعية (الكلاسيكية) واستعاضوا عنها باللون الابتداعي (الرومانتيكي). وكان شارل كيشفالودي Kisfaludy اول مؤلف للقصص القصيرة وقد صادف هذا اللون اقبالاً عظيماً لدى الجمهور . ثم كتب تمثيليات حظيت بالظهور على خشبة المسرح ، ولم تظل كغيرها في بطون الكتب القديمة المهجورة . وقد اختار أفراد فرقته من بين عمال الشعب ، فأخذوا يجولون من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية، لتمثيل المسرحيات داخل قاعات انتشر الدخان في جوها ، أو داخل حانات او مخازن قمح ، وقد كانوا جميعاً متحمسين لمثلهم الأعلى ، ألا وهو نشر هذا اللون الأدبي الجديد في جميع انحاء البلاد .

وقد دعم الحركة الابتداعية (الرومانتيكية) عباقرة ظهروا

على غير انتظار في الميدان الأدبي . نذكر منهم ميخائيل فوروشماري Vorosmarty الذي كتب ملحمة غنائية ، اقتبس موضوعها من تاريخ المجريين المجيد ، الذين غزوا بلادهم هذه منذ ألف سنة . وأسلوب فوروشماري مثير للعواطف ، غني بالمفردات ، مما أدهش قراء مؤلفاته فأقبلوا عليها إقبالا كبيراً . ونال من جراء ذلك شهرة منقطعة النظير . وقد حل مشكلة اللغة المجرية الحديثة المولد ، فأخذت تسيل تحت قلمه كالماء السلسبيل ، في عظمة وروعة ، ولكن بلا غموض ولا تعقيد . واستخدم كل عبارة قادرة على الثبوت ضد التيارات القوية في مستقبل الأيام ، ووضع نموذجاً مستقراً ، توسع فيه من جاء بعده من الأدباء المقلدين له .

صقل كازنتسي Kazinczy وغيره من المصلحين ، العبارات اللغوية صقلا صناعياً ، أما فوروشماري Vorosmarty فقد ابتكر الكلمات بغريزته ، واشتق الاستعارات والتشبيهات من أفواه الشعب وارتفع بها الى مصاف الأسلوب البليغ الرقيق . هذا هو في رأينا الطريق الصحيح الذي يجب أن يسلكه الأدب الاصيل . فمثله مثل الشجرة التي تمتد جذورها الى اعماق الارض ، لكن فروعها تمتد في عظمة وفخار ، الى عنان السماء .

سيطول بنا المقام اذا حاولنا ان نذكر ولو بايجاز أسماء عشرات الكتاب والشعراء المجريين الذين أدوا للأدب أجل الخدمات ، رغم ما لاقوه من الظروف الغير مواتية . لذلك

سأكتفي بالنزر اليسير مع الاشارة الى الاتجاه العام الذي سار فيه الأدب المجري الناهض خلال عشرات السنوات الاولى من القرن التاسع عشر . ولا غرو فهذه الحقبة تعتبر بحق العصر الذهبي للأدب المجري .

سار النثر الأدبي في بلاد المجر على اعقاب الشعر ، متأثرا بالنزعة الابتداعية « الرومانتيكية » التي كانت سائدة آنئذ . وقد أقبل الجمهور على قراءة القصص التاريخية المثيرة للوعي القومي ، والتي تصف ماضي الشعب المجيد وما لاقاه من تضحيات في سبيل كرامته واستقلاله . بيد ان المذهب الابتداعي « الرومانتيكي » في اوربا ، صادف دائما في طريقه تيارات مضادة . وهذا امر طبيعي في جميع الحركات الاجتماعية . فاذا انتابت الشعب روح اليأس والقنوط ، تحول تفاؤله إلى تشاؤم واعتبر التقدم بطيئا مهما كان سريعا ، وطالب بالمزيد من المعجزات . لقد حدث رد الفعل التشاؤمي هذا في الأدب المجري . اذ وصف جوزيف ايوتفوش Joseph Eotvos في كتابه «عمدة القرية» حالة التأخر التي آلت اليها القرية، داعيا لرفع مستواها . وفي كتابه « الكريتزيون » سرد قصة جماعة من الرهبان المتزمتين ، واشار فيه إلى حياة الزهد التي تنتشر كلما هبت رياح التطير والتشاؤم ، وهي الرياح التي تجتاح العالم المتحضر من وقت الى آخر .

أخذت الافكار تغلي في أتون التاريخ . كان البرلمان يعقد جلساته وقتئذ في مدينة پوزوني Pozony غربي بلاد المجر ، وهي

الآن من المدن الزاهرة في تشيكوسلوفاكيا الحالية ، ومعروفة باسم براتيسلافا . لم يكن أعضاء البرلمان منتخبين من الشعب ، بل مندوبين من قبل اشراف المناطق ، الذين كانوا يصدرون اليهم تعليمات صريحة دقيقة بشأن تصرفاتهم . اصبح هذا البرلمان — او الديت كما كانوا يدعونه — ساحة قتال تتبارى فيها المصالح المتضاربة والآراء المتنافرة . كان المحافظون — ويتزعمهم الكونت سيجيني — يناصرون فكرة التطور البطيء مع مراعاة الظروف الاقتصادية للبلاد ، فهو سينتهي حتماً إلى استقلالها سياسياً . وكان سيجيني متشبعا بروح النفعيين الانجليز ، متشيعاً لآرائهم ، فأخذ يدعو لتنفيذ سياسة مستقرة من شأنها ان تنهض بالشعب اقتصادياً ، ثم ترتفع بمستواه الثقافي . كانت فكرة الثورة تفزعه . وقد نشر عدة بحوث علمية ، شرح فيها نظريات بنتام ومذهبه . وفي اعتقاده ان الشعب المجري يجب ان يصبح بادىء ذي بدء ، في حالة رغد وسعة عيش ، ثم يُثقف ويوجه إلى طريق الاستقلال . كان سيجيني عظاميا (ارستقراطيا) معتدلا ملما بسير الامور في اوربا ، لذلك كانت اصلاحاته ترمي الى تحسينات عملية في الشؤون المجرية . فازدادت غلة الأرض بفضل تنظيم مجرى الأنهار ، وتقدمت التجارة الخارجية .

لاقت سياسته السلمية في ادخال تحسينات على شئون البلاد ، ارتياحاً عظيماً من جانب فريق لايستهان به من اعضاء مجلس الديت في دورات انعقاده . بيدأن بطء الاصلاحات قوبل بشيء من المعارضة ، وقد تزعم حركتها أعظم الخطباء والسياسين الأحرار ، وهو لويس

كوشوت Kossuth . كان نبيل المولد ،عريق الحسب والنسب، رغم فقره ، حاد الطباع قوي الشكيمة ، فدفع بالقوى الثورية المجرية ، حتى أدركت القمة . وقد نشر المرة الأولى مضابط مجلس الديت لكي يطلع الشعب على أعمال البرلمان. وأسس صحيفة يومية ، لحفز همم المترددين ، واقناع المتشككين . وقد طالب باصلاحات سريعة ،أهمها تحرير الاتباع من نير الاقطاعيين ، واعادة توزيع الأراضي . كانت الافكار في البلاد في حالة هياج . كالمرجل المضطرمة تحته النيران المتأججة ، فالمصالح المتعارضة والنزعات المتنافرة ، رفعت الرأي العام الى درجة الغليان . ثم حدثت ثورة ١٨٣٠ في فرنسا، فدفعت الحركة الى الأمام ولم يتردد المجريون في الضرب بسهمهم ضمن السهام التي اشتركت في المعركة .

شاءت المقادير أن يظهر في جو المجر المضطرب ، فريق من حملة القلم الشبان الذين ضاقوا ذرعاً بأساليب الحكومة الملتوية ، فرفعوا أصواتهم مطالبين بالحرية التامة للصحافة ، وبهيئة نيابية دستورية منتخبة من الشعب انتخاباً مباشراً وكان في مقدمة هؤلاء الشبان اسكندر بيتوفي Petofi ، الذي اصبح بعدئذ من أعظم كتاب الشعر الغنائي في العالم قاطبة . ونظراً الى المركز الممتاز الذي يشغله هذا الشاعر في الأدب المجري الجديد ، فاخصص له فيما يلي نصيباً وافراً من هذه المقالة .

ولد الكسندر بيتوفي من والدين فقيرين في سنة ١٨٢٣ . كان والده جزاراً ووالدته خادماً . لم يتلق من مبادىء العلم الا ايسرها

وكان انتظامه في المدارس الاولية مقطعاً لهيامه بالتجول في السهول. وكانت روحه روحا جامحة تتجافى التقيد بالنظام فهجر حجرة الدراسة باحثاً عن المجد اولا في الخدمة العسكرية ثم على المسرح . ذلك انه عين وهو جندي للاقامة مع كتيبة في النمسا فاتيح له ان يتعلم اللغة الالمانية ، واكب بنفسه على درس اللغتين الفرنسية والانكليزية فاجادها بعض الاجادة . لم يصب على المسرح نجاحاً يذكر بل كثيراً ماتعرض هو وفرقته اثناء التجول لاشد الوان الخصاصة والفاقة . وجاءت عليه ايام كان يعاني فيها برد هنغاريا القاسي وهو لا يملك ملابس تدفىء ظهره ، بل كثيراً ما كان يجوع ويبيت على الطوى . ولكن ، لا البرد ولا الجوع استطاعا ان يخمدا تلك الشعلة الداخلية المتقدة في صدره ، المتأججة كأنها قوة من قوى الطبيعة ، ثم انطلقت في شعره الذهبي توقا الى الحب والحرية . وبعث باشعاره الاولى الى المجلات ، فلم تفز باقبال من الشعب ولكن سطورها ونبراتها كانت متسمة بروح العصر فلم تلبث حتى سرت مقاطعها على الالسن فحفظت ورددت بحماسة . وكان شعار اشعاره « عشق وحرية » وهما كلمتان تمثلان بانقى ايجاز روح عصره :

عشق وحرية ،
هذين اريد
لعشقي ابذل حياتي
ولحريتي ابذل عشقي

اسكندر بيتوفي : شاعر الثورة

اطلقه نجاحه الادبي الاول من عقال همومه ، فدعي الى الاشتراك في مجلة ادبية ، فاصاب فيها دخلا يسيراً مكنه من الصداح ، فتوالت القصائد من قلمه وافرة العدد سائرة دائماً في طريق الاتقان والاجادة. كان ابن السهول الهنغارية الفسيحة فاستوحى حرارة شمسها وافقها اللامتناهي ،فكتب ماخفق به قلبه في حداثته في كلام سهل منساب كتكلام الفلاح، صادق كتغريد الطيور ، متوقد نبيل كحمم البركان. لم يكن رائده في نظمه البحث عن قالب مصطنع من الكلام ، ولم تكن الالفاظ في اشعاره الا وسيلة متواضعة الى التعبير عما يخالجه من شعور سام وفكر ملح . ومع ذلك فقد كانت اشعاره على الرغم من بساطتها مفرغة في اتم القوالب جمالاً ، فقد كان الكلام ينساب من بين شفتيه كالجدول المترقرق في الوادي ، بل اننا لنشعر بشذا ازاهير المروج في أغنياته . ان هدوء الليل في القرى الهنغارية يهمس اسراره في آذاننا ، وهجير النهار المتوهج في السهل يلفحنا ونحن نقرأ سطوره . هاهي ذي الكلمات التي تحولت اناشيد ترف في الهواء . لقد هب النسيم الرطب من القرية فتغلغل في الجو الخانق الذي يكتنف الشعر القديم فسبا القلوب جميعاً بنفحة واحدة . وقد كان طبعه جامحاً لايقاوم ونغمته قوية تفرض على النفس، فما لبثت المدن القديمة حتى حدت من حريته فرد عليها يقول (للمقلدين) :

هل تحسبون الشعر عربة تتخيرون لها الفجاج المسلوكة ؟
الشعر عقبان تطير حرة في اجواء لم يختطها أحد

الضعاف هم الذين يتساءلون في جبن : أين الطريق ؟
فاذا دلوا عليها هرولوا اليها كالكلاب الجائعة وراء العظام .
ايها الراغب ان تكتب ، خذ قلماً اذا آنست من نفسك القوة.
ثم تقدم الى حيث لم يتخط احد .
والا خذ محراثاً او قالب اسكاف
والق من يدك عودك الحقير .

واجتذبه القلق السياسي في هنغاريا الى النشاط الاجتماعي فغدا زعيم الشباب . فخاض قلمه في موضوعي تحرير أرقاء الارض من النبلاء والتنديد بالحكم الاجنبي وخط على القرطاس الفاظاً ثورية. وكتب قصيدة طويلة من النوع الملحمي عنوانها « الرسول » وصف فيها نضال الانسان في سبيل الحرية ، ثم اطلق في قصائده القصيرة سخريته اللاذعة على النبلاء المتراخين الانانيين الذين نضب من صدورهم حب الوطن . فلما منع هذا النوع من الشعر لجأ الى المجاز كقصيدته « الاسد الحبيس » :

ابدلوه من رحاب بلا حدود ، قفصاً صغيراً
وبين اعواد من الحديد في القفص الصغير سجن الاسد ، ملك الصحارى

دعه ينهض مسالماً في غير عنف
فحرام ان تذله وهو من هو في جلالته
غصبته حريته فلا تمنعه ان يحلم بها

اعجزته ان يدرك ثمار الشجرة فاتركه يتفيأ في ظلها
لم يزايله كبره حتى الان
لقد سلبوه حريته ولونه ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يسلبوه
نظرات البطل يديرها
لقد شردت افكاره هناك . . فتخيل نفسه في آجامه ، حيث
العواصف تدوي حوله ،والريح السموم تهب عليه
يالها من ايام طيبة ، وارض عزيزة
ولكن عالم تخيلاته انقطع لان حارس قفصه وصل ، وسرعان
ماهوى على رأسه بعصاه
يالله . . وغد وعصا بحكمان
ان الجمهور الغبي حول قفصه يحملق
لقد اجترأ ان يضحك من الاسد
يالله . . كيف تجترىء بغاث الارض ان تهمس
لو حطم الاسد قفصه ، وخلي بينه وبين حريته
لم يبق من ارواح هذه البغاث بقية لجهنم

ولكنه لم يخش ان يزجر في قصائد اخرى يبدو فيها الشعور صافياً والقصد واضحاً ، لايخطئها الظن كقوله في « نشيد الكلاب » و « نشيد الذئاب » :

اذا غضبت العاصفة تحت السماء الغائمة
وتساقط ابناء الشتاء التوائم : الثلج والمطر ،

فلا شان لنا بها
لنا في ركن المطبخ مكان ارقدنا فيه صاحبنا الكريم
نحن لايشغلنا القوت
فانه اذا اكل صاحبنا وشبع ،
بقي على مائدته كثير من الفتات
قد ينال السوط من اجسادنا حينا
ولكن ننفض الالم عن ظهورنا ونستريح
وسرعان مايجذبنا صاحبنا اليه
نلاطف في سرور ارجله الكريمة

* * *

اذا غضبت العاصفة تحت السماء الغائمة
وتساقط ابناء الشتاء التوائم : الثلج والمطر ،
فلا منجاة لنا منها
نحن في فيافي مقفرة ، لادغل فيها نلتجىء اليه
الزمهرير في الخارج ، والجوع في الداخل ، يضطهدنا ،
وهناك على الثلج الابيض ثالث ، هنالك السلاح
ينتظر ان يرى دماءنا الحمراء
نحن مقرورون جائعون حقاً ،
وجنوبنا هدف للسلاح حقا
كل هذا الشتاء نصيبنا
ولكن نحن احرار

وفي غمرة هذا النشاط كشاعر وزعيم، وجد متسعاً من الوقت لاعمال ادبية اخرى ، فنقل آثاراً مختارة من الاداب الفرنسية والالمانية . والامة الهنغارية مدينة له بترجمات نفيسة من شكسبير . ثم وقع رغم شهرته وحب البلاد له في شرك الحب . وهوى فتاة حقيقية لامن نسج خياله ، يوجه اليها الحان قيثارته . انها جميلة من اصل نبيل وقد غدت قطب آماله ثم زوجه برغم معارضة والديها. وهذه سلسلة من قصائد تبدأ بقصيدة « ما الامل » :

امرأة بلا شرف ...
تجاذب كل امرىء حبل المودة
اذا انفقت عليها كنز الانفس : شبابك
لم يبق لها في ودك ارب

ثم تمضي هذه السلسلة في عدد لا يحصى من القصائد الغنائية الجميلة :

كيف اسميك ؟
اذا رفت من عينيك حمامة وديعة
ريشها من غصن الزيتون ، ولمسها انعم من وسادة المهد
كيف أسميك
اذا رن من صوتك نغم عذب

لو سمعته الاشجار الجافة لأورقت غصونا خضرا ، ظنا ان الربيع اتى ، لان العندليب يغني

كيف اسميك ؟

وانت الام العزيزة لغبطتي ؟

وانت التي تتضائل امام حقيقتك المتلألئة آمالي الجريئة

عزيزتي ، جميلتي ، زوجتي :

كيف اسميك ؟

وتنتهي الى قصيدة «زوجتي» المعدودة من اتم واجمل القصائد الغنائية في الآداب العالمية :

ما برحت ازهار الحديقة تتفتح في الوادي

وما زالت الصفصافة تخضر امام نافذتي

ولكن اليس هناك العالم الشتوي ، حيث يغشى الثلج قمة الجبل ؟

كذلك قلبي في شبابه يقوم الصيف باشعته الحارة ، وفي آماله يتمثل الربيع المزدهر

ولكن شعري الاسود قد وخطه المشيب وغشى رأسي جمد الشتاء

اجلسي هنا يا حبيبتي ، هنا في حجري

لقد اسندت الان رأسك الى صدري فهل ترتمين غدا على ضريحي ؟

هل تصنعين لو مت قبلك كفنا لرفاتي ؟
وهل يحملك عشق شاب ان تتركي من اجله اسمي ؟
اذا نبذت حجاب الارملة ، فاشنقيه الى شاهد تربتي ، ليكون علماً اسود
وسارتفع اليه في جنح الليل ، وانقله الى لحدي
لأمسح به دموع حسرتي ، اذ نسيت في سهولة من يذكرك
ولأضمد به جراح قلب لايزال في اي مكان وعلى الرغم من كل شيء يحمل لك الحب .

وهذه قصيدة عنوانها الاصلي « في آخر ايلول » :

هاهي ذي الايام الاخيرة في ايلول تتوالى ،
واشهر الشتاء الطويلة في ذيلها .
لا تزال الازهار متفتحة في الأودية ولكن الثلج بدأ يجلل قمم الجبال
وفي تلبده انذار بموت الطبيعة .

وبيتوفي يشارك جميع العباقرة في انه كان متسما بسمة النبوءة ، فاحس في كيانه الفاجعة المتهيئة له في طيات الغيب . ورزق بغلام بعد انقضاء سنة على زواجه ، فنعم بسعادة الحياة ، ولكن هذا النعيم تبدد بعد قليل عندما نشبت الثورة في هنغاريا فكان له فيها شان عظيم، شبيه باحدى قصائده المتأججة التي تليت على الجمهور المتحمس في شوارع بودابست ، فحملها وعدا بها الى المطبعة ونضد

حروفها وطبعها بغير اذن من المراقبة ، فكانت المنشور الهنغاري الاول الذي لم يصدر اذن بطبعه .

كانت هذه القصيدة الخطوة الاولى نحو تكسير الاغلال التي قيدت بها حرية الحبر ، فنشبت حرب الاستقلال . وانتظم بيتوفي في الجيش فجمع في القتال بين السيف والقلم . وكأن النضال قشع مابقي من غشاوة رقيقة على بصيرته فكتب قصيدة «تعبير حلم» :

قلت ياأماه : ان الأحلام في بعض الليالي ، تصورها يد سرية قادرة .

وقلت : إن الأحلام كوة تطل منها ارواحنا على المستقبل المغيب .

وقصصت عليك اني وجدت نفسي في المنـــام وقد نبتت لي أجنحة ، فطرت إلى غير منتهى .

فأجبتني ياأماه أني سأمتع بايامي ، وأن شمس حياتي لن تغرب

وقلت يابني هذا تعبير رؤياك

ذلك هو الشاب يشتد ساعده ، فيحتضن العود

وها هو ذا يبث العود أسرار نفسه

وتلك هي ألحان قلبه اللهيب ، تذهب كالطير في مختلف الأجواء

فتستنزل من السماء صيتاً يتلألأ

ومن شعاعه يتألق على جبين الشاعر تاج

ولكن حلاوة الالحان الساحرة ، تختزن السم في أعقابها
فكل لحن يهبه الشاعر عوده ، زهرة من أزهار قلبه
وما كل زهرة الا يوم من عمره لا يعود .
ذلك هو الشاعر على سرير موته
وهذه أمه بجواره تهيئم بالتوجع شفتاها .
تهتف بالموت الا يغصب ابنها من بين ذراعيها
وتستنجز السماء وعدها ان يعيش ولدها الحبيب
وتقول في حسرة : أو تكذب الأحلام ؟
ما كذبتك الأحلام يا أماه
فاسدلي علي أكفاني
وأودعي الرفات مصيرها المحتوم
أما ابنك فسيبقى اسمه حياً
حياً الى الأبد .
هذا ياأمي تفسير رؤياي .

وهي قصيدة استوقفت نظر الشبان والشيوخ وحركت شعورهم . ففي هذه المرحلة المتأججة من حياته كانت قيثارته قد شدت أوتارها الى أبعد حد فانطلقت منها أشعار الحب وأناشيد الوطنية عميقة متوهجة ، حتى لنكاد لا نرى لها مثيلا في آداب أمة ما .

كان في السادسة والعشرين من عمره فتياً ممتلىء الاعطاف ولكنه كان يتوق الى الموت ، لا موت التعفن والانحلال بين

الوسائد ، بل موتاً في الميدان دفاعاً عن الحرية فأنشد :

فكرة واحدة تعيني .
أن أموت على سريري بين الوسائد والحشايا
أن أذبل رويداً ، كالزهرة تتناهبها الحشرات
أن اتفانى بطيئاً كالشمعه اليتيمة في غرفة مهجورة ..

* * *

رباه لاتقدر لي ميتة كتلك
أريد أن اكون شجرة :
تخترقها الصاعقة ، او تستأصلها العاصفة .
أريد ان أكون صخرة :
ينحدر بهـا من الجبل الى الوادى رعد صخاب .

* * *

حينما تئن الشعوب في أصفادها ، وتضيق بنيرها
فتخرج باعلامها الحمر ، شعارها : الحرية للعالم أجمع !
ثم لايلبث ان ينازلها الظلم بحديده وناره ،
هنالك فلأمت انا في حومة الوغى ،
هنالك فلتسل مهجتي فوارة حرى .

* * *

فاذا نبست شفتاي باخريات كلامي في غبطة ،

فلتذهب بين ضجة البوق ، وقعقعة السيف ، وهدير المدفع .
واذا تهاويت على الأرض جثة فاقدة الحراك
فلتدسني سنابك الخيل في عدوها الى النجاح المظفر .
ويوم تجمعون رفاتي المحطم
وتحتشدون لدفن بقايا عظامي
وتسيرون بي وسط الموسيقى الوئيدة ، تحت الرايات السود
اودعوني مع اجداث الذين راحوا فداء لك : ياحرية العالم .

وقد تحقق ما أراد وقتل في اواخر ايام تموز ١٨٤٩ في سهل شجشوار حيث التقى جيش هنغاري صغير بقوة روسية ساحقة . ومات استقلال هنغاريا بموت بتوفي ، فدفن « لاقبر ولا وطن » مع سائر القتلى في مقبرة عمومية . ولكن الشعب الهنغاري لم يصدق ان حريته خنقت وان شاعرها مات . فنسجت الأوهام أساطير حول اسمه ، وغدا القرويون يتهامسون بانه لم يمت ، وانه أسير في سجن روسي وانه لابد عائد مع الربيع القادم .

وفي سنة ١٨٦٧ تم التفاهم بين النمسا وهنغاريا فتحقق آمال الشاعر واستردت هنغاريا حريتها وانقذت من الحكم الاجنبي .

ولم يشهد بيتوفي سعادة أمته ولكنه لم ير كذلك مأساة زوجه وولده . اذ تحقق ما رآه بعين الخيال — في قصيدة « الى زوجتي » — عندما تزوجت زوجته رجلا آخر بعيد مصرعه ومات ابنه في حداثته .

كان يتوفي شهابا في سماء الأدب صعد من الحضيض الى الاوج ثم اختفى في الظلام ، ولكن آثاره الفنية باقيـــة معنا بين امجاد العبقرية الانسانية .

٣ – أدب ولد في الكفاح

تدثر الشعب المجري برداء الحزن ، على اثر الكارثة التي ألمت به من جراء انهزامه في حرب الاستقلال . ولكنه ظل يعلل نفسه بالأمل في البعث .

ومرت الحقبة بين سنة ١٨٥٠ ومصالحة سنة ١٨٦٧ في اضطراب وتنازع ، بين الحكم المطلق والمعارضة الشعبية المتمردة المستميتة . وعاد الشعراء يواسون الامة البائسة ، المغلوبة على امرها. فقد كتب ميخائيل طومبيا M. Tompe مرثيته الذائعة الصيت الموجهة الى اللقلق ، وهو طير رحال، يسافر الى افريقيا في فصل الشتاء ويعود الى المجر في فصل الربيع. وقد تضمنت الأبيات الشعرية بشكل واضح اشارة خفية الى حرية المجر المسلوبة ، واحتلال الجيوش النمساوية لأراضيها ، ففزعت الحكومة وبادرت الى القاء القبض على الشاعر وسجنه ،عقابا له على جرأته واليك ماقاله في حديثه الى اللقلق :

نشيد الى اللقلق

قصيدة لميشيل طوميبا

لقد منحت دارين ، اما نحن ، فكانت لنا دار
واحدة لكنها فقدت هي أيضاً .

النسيم عليل ، وضوء الشفق انتشر في الافق
لقد عدت أيها اللقلق ، أيها الطير الحبيب
وبدأت تصلح ثقوب عشك القديم ،
لكي تحتضن زغب أفراخك الصغار .

عد ادراجك عد ! ستخيب ظنك
الشمس الـــكاذبة ، ودموع الغدير المنافقة .
عد أدراجك عد ! فلا ربيع هنا بعد اليوم !
وستظل الحياة دائما جافة كالحجر الصلد ،باردة كالجليد اليابس.

اياك أن تذهب الى الروضة ، فماهي الا قبر موحش
أياك أن تذهب الى البركة ، فقد طفحت جوانبها دما !
واذا نشدت فوق الأبراج ركنا لتستريح
فحذار من أن تطأ بقدميك جمرة حامية .

خير لك ، كما ترى ، أن تغادر سقف منزلي !
ولكن الى أين المصير ، أين تستطيع بناء عشك

دون أن تسمع تحته رنين البكاء ونشيج النحيب
ودون أن تتوقع نزول الصواعق من السماء .

عد ادراجك عد ! ان الجزيرة في الجنوب تنتظرك
فأنت أسعد حظا منا أيها الطير الحبيب .
لقدشاءت الأقدار الرحيمة أن تمنحك وطنين
أما نحن ، فلم يكن لنا الا وطن واحد ، ثم فقدناه .

طر ! طر ! واذا وجدت في مكان ما من الجنوب
مذنبين مختبئين عن الأعين او مشردين في الأرجاء
قل لهم ان كل شيء قد انتهى ، واننا تائهون في دياجر الظلمات
قل لهم إن الأمة أخذت تتبعثر ، كالحزمة اذا فكت أوصالها.

قل لهم إن عدداً كبيراً منها قد احتوته القبور
واننا نحن الباقين في قيد الحياة ، نمشي الهوينا في صمت رهيب.
واذا نهض بعضنا من كبوته باكيا
ذهب الى ماوراء البحار للبحث عن وطن .

العرائس يبتهلن الى الله أن يجدب بطونهن
والآباء يشهدون موت أبنائهم دون أن يذرفوا الدمع من مآقيهم
وقلوب الشيوخ تمتلىء فرحاً وسروراً
اذا مافكروا انهم لن يعيشوا طويلاً .

ثم . . قُصَّ عليهم — ويالله العار ! —
أنه ما كفانا حظاً قطع الشجرة
بل لقد ظلت في الشجرة المقطوعة دودة قارضة
وأخذ المواطن يخون الوطني .

الابن يبيع أباه ! والأب يبيع ابنه
ولكن ! من الخير أن يصمت فمك
حتى اذا كان هنالك من يندب سوء طالع بلادنا عن بعد
لاينتهي به الأمر الى الاشمئزاز منها .

وقد وصف الشاعر أراني Arany القرى المجرية الهادئة ، وكتب ملحمة شعرية قوية جداً بطلها شخصية خرافية ، ووضع بعض الاغاني التي تضارع روائع الأدب الاسكتلندي في اثارتها المرهبة . وقد حاولت الحكومة أن ترشوه فقدمت له مائة دينار ذهبا، اذا وافق على امتداح العهد الجديد . لكن الشاعر ، رغم فقره المدقع ، رفض العرض في أغنية تمزق القلوب أسى عنوانها : « شعراء ويلز ». وقد جاء فيها أن ادوارد ملك انجلترا ، عندما غزا بلاد ويلز، دعا شعراءها وطلب اليهم تمجيده . لكن أحداً منهم لم يمتدحه ، بل أجمعوا على هجوه . وقد جيء بهم الواحد تلو الآخر الى المشنقة ، فضربت أعناقهم ، دون أن يخفضوا هاماتهم أمام العاهل الظالم . وكانت هذه الأغنية مجازاً الى أن الوعود الكاذبة والرشاوى لن تحوّل

المجريين عن عزمهم على استرداد حقوقهم المسلوبة .

وكان الانتاج القصصي وافراً جداً . لذلك سأقصر اهتمامي على أحد أئمة القصة المجرية ، وهو معروف في جميع انحاء أوربا ، بفضل ما ترجم من مؤلفاته : ذلك هو موريس يوكاي .

بدأ حياته الأدبية معاصرا لاسكندر بيتوفي ، لكنه حظي بعمر طويل امتد الى مستهل القرن العشرين . كان من جنود حرب الاستقلال ، وشهد المصالحة بين أسرة هابسبورج والأمة المجرية ، وحضر عصر النهضة الاقتصادية والثقافية . وقد ثابر على الانتاج بهمة لاتعرف الكلل ، فكتب نحو ثمانين قصة طويلة ، نهج فيها نهج الأدباء الابتداعيين (الرومانتيكيين) . وقد تناول في قصصه الحياة في المجر ، ووصفها وصفا خياليا رائعا . وحوادث قصصه متنوعة مسلسلة جذابة ، حتى ان القارىء لايستطيع اغلاق صفحات الكتاب قبل أن يصل الى النتيجة النهائية التي اخذ يتشوق اليها منذ بدء القصة . وحلل شخصيات الطبقات الاجتماعية المجرية ، كباراً وصغاراً ، ابتداء من الفلاح المتواضع الى العظامي المتعجرف . فكانت قصصه كالمرآة ينعكس عليها القرن التاسع عشر بأسره . وفي قصصه التاريخية ، ابتدع صورة خياله لحياة عصره ، وبالرغم من ان هذه الصورة من مبتكرات خياليه وبالرغم من انها لاتمت الى الحقيقة التاريخية باية صلة ، فقد أقبل القراء على قصصه اقبالاً كبيراً ، ومازالوا حتى الآن يعتزون بمؤلفاته . وقد تنبأ في روايته له عنوانها « القرن العشرين » باكتشاف الطائرة والغواصة والمذياع ، وكان وصفه لها دقيقا الى حد الابداع . ومما يؤسف له أن

قصص يوكاي لم تنقل الى العربية ، بينما ترجمت الى الفرنسية والانجليزية ، فأصبحت في متناول اليد . بذلك ، أوصي اخواني العرب بمطالعتها ، مختصاً بالذكر تلك التي تتناول موضوعات الحكم التركي في المجر ، فهي تمتاز بالدقة ، وبالأوصاف الزاهية الألوان . وفي قصته : « الرجل الذي عيناه في جبهته » تحدث عن الحج الى مكة المكرمة بعبارات الاجلال نحو الشعائر الدينية الاسلامية ، واضاف اليها وصفاً خيالياً عن قصة اعرابي جوال لاقى شتى المخاطر والحوادث .

وجدير بي الآن أن أوجه نظر القراء الكرام الى أعظم قصة مؤثرة وضعها امره ماداج» وعنوانها «مأساة الرجل»، والمؤلف رجل عظامي متيسر الحال، اشترك في الحركة الوطنية ضد الاحتلال النمسوي وسجن لمدة سنة. وفي خلال ذلك هجرته زوجته، فزهد الحياة الدنيا وعكف على قراءة جميع الكتب الفلسفية والعلمية التي ظهرت في عصره . وقد جاءت المآسي العائلية التي انتابته ، فضاعفت كآبته ، وبلغ حداً من التشاؤم جعله يرى مصائر الانسانية بمنظار أسود قاتم . وحفزه هذا الشعور ، على كتابة مأساة مسرحية فلسفية موزونة ، نلخصها فيما يلي :

خلق الله الكون ، فجاء ابليس ، أحد الملائكة المتمردين ، مطالبا لنفسه بنصيب في تاريخ الانسانية. عندئذ منحه الله شجرتين في الجنة: شجرة الخلود ، وشجرة المعرفة. جاء الزوجان الأولان من الجنس البشري ، وهما آدم وحواء وتذوقا ثمار الشجرتين ، ففقدا الجنة، من

جراء هذا التصرف. واصبح آدم مدركا لقوته، فرسم لنفسه الطريق وسلكه . والآن وقد حاز المعرفة ، يريد كشف ماخفي من مصير ذريته ، أي الجنس البشري . نوّمه ابليس وعرض على أنظاره — في حلم سحري — تقلبات المصير الانساني ، مبتدئاً بالاهرام المصرية ، ومنتهيا الى انهيار العالم واختفاء الجنس البشري . ويتكون العرض من خمسة عشر مشهداً ، مرتبطة بعضها ببعض ، وفي كل مشهد ، يظهر آدم مرتديا زيا مختلفاً عن ذلك الذي ظهر به في المشهد السابق ، وهكذا دواليك . ففي مصر مثلا ، آدم هو فرعون ، وابليس وزيره، وقد فرضا حكم الاستعباد ، وسخرا الشعب في تشييد بناء ضخم ، تخليداً لذكرى الملك . وفي اليونان يتمتع الشعب بالحرية ، لكنه لا يزال عرضة لأساليب التحريض والفتنة التي يثيرها فريق من الاستعماريين. ويظهر آدم في روما مع حواء ، حيث يتمتعان بالملذات الفاسقة الخليعة ، واخيرا قبلت المدينة التعاليم المسيحية . هنا يعود الأمل الى نفس آدم ، ظاناً أنه قد عثر على طريق السعادة . وفي المشهد التالي، يلبس آدم درع الفوارس الصليبيين ، لكي يحارب في سبيل الدين المسيحي . وبعد عودته ، يتضح له من التجارب أن المسيحية قد فسدت على أيدي القساوسة، فيتحول عن هذه النظم الخاطئة، متذمرا مشمئزا ويعكف على دراسة العلوم . وبعدئذ ، ينتحل آدم شخصية كيبلر، الفلكي الكبير ، لكنه لا يلبث أن يفقد كل أمل في قوة العلم . هنا يظهر مشهد جديد — مشهد الثورة الفرنسية — فيدخل آدم في ثوب الزعيم دانتون ، ويدعو الأمة الى التمسك بالمبادىء الشعبية

(الدمقراطية) الحرة . ولكنه يذهب ضحية لاخلاصه ، فيجرفه تيار الثورة . وها هوذا معرض لندن الصاخب ، المكتظ حيث نشطت الأعمال ، وتبوأت حرية التجارة المكان الاول ، فاسفرت عن نتائج باهرة . لكن آدم الواجم عاد فتحقق مع الأسف الشديد أن حرية التجارة تدوس بأقدامها الشعب الفقير المستغل ، وتهبط به الى الحضيض ، وهو يعلل النفس بالاماني ، راجيا أن يقوم مجتمع جديد، حيث يحيا الجميع ضعافا وأقوياء، حياةً كريمةً في رخاء ورغد.

والمشهد التالي هو مجتمع « فالانستر » الذي تخيله فوريه المصلح الاجتماعي الفرنسي الشهير . في هذا المجتمع ، تتصرف محكمة عليا في جميع السلع وتوزعها على أفراده . وتقدّر الأمور بحسب المعقول ، وتجرى الحياة وفقاً للأساليب العملية ويستغنى عن تشغيل الحيوان، ويستعاض عنه بالآلات . هكذا أصبح الكون يدار في حدود عملية ضيقة، وتحول الانسان الى آلة صماء . نظر آدم الى هذه الصورة ، فأثارت الاشمئزاز في نفسه فحاول أن يطير الى السماء ، أن يعثر هنالك على نجم سيار جديد، أسعد حظاً. لكن محاولته هذه ذهبت عبثا. وأخيراً شعر باقتراب نهاية الجنس البشري ، اذ أخذت الأرض تبرد ، وانتشر فيها القحط، فنزل الانسان الى درك الاسكيمو ، الذي لا يفكر الا في اشباع نهمه، شأنه في ذلك شأن الحيوان الأعجم. عندئذ استيقظ آدم من حلمه فزعا من جلبة العالم المنهار ، في طريقه الى الخراب والدمار . وقد فكر آدم في الانتحار ليدرأ خطر الحوادث التي رآها في حلمه ، ولينقذ نفسه من مشاهدة تطورها على مر الأجيال ، فشرع في القفز من

فوق صخرة عالية ، لكن حواء أسرت اليه في أذنه انها حامل ، فكان هذ النبأ ايذاناً لبدء حياة بني الانسان على الأرض ، وسيرها في طريقها الوعر نحو مصيرها المحترم .

ان هذا المؤلف العظيم ليثير الرهبة في النفوس ، نظراً الى طابعه التشاؤمي المفزع . بيد أنه يعتبر من أروع المسرحيات الفلسفية المؤثرة . وهو يختلف كل الاختلاف عن « فاوست » التي ألفها غوته وكثيرا ماقوبل بها على انه يمتاز عليها في عمق الفكرة ، والمكانة والفلسفية .

هدأت الحياة السياسية في المجر ، بعد تصالحها مع النمسا في سنة ١٨٦٧ ، فأنجبت سنوات السلم ، مئات من القصصيين والشعراء يطول بنا المقام لو اردنا مجرد بيان أسمائهم . بيدأن اهتمام المؤلفين اتجه رويداً نحو حياة عامة الشعب والفلاحين . وقد تطلبت المشاكل الاجتماعية حلولا سريعة ، فأخذ الكتاب يعبرون عنها بأسلوبهم وطريقتهم . وهناك مؤلفون مسرحيون مجربون نالوا شهرة عالمية : أمثال فرنسيس مولنار وأوجين هلتار ، الذي جمع بين فن الشعر ، وفن رواية القصص . وكتب جوزيف كيش بعض الاغاني المؤثرة ، وعرض اسكندر برودى حالة الطبقة الوسطى في المجر ، وتطورها في سبيل التقدم والازدهار .

ومن المؤلفين العديدين الذين اشتهروا في نهاية القرن التاسع عشر وامتدت حياتهم الى مابعد الحرب العالمية الأولى ، نذكر اندريه آدي . فهو النبراس الذي اهتدى به هواة الأدب ، بل هو المنهل

الذي ارتوى منه المتعطشون الى روائع التأليف . عاد من باريس متشبعا بروح المذهب الرمزي ، فأثارت قصائده موجة من المعارضة الشديدة . كان نغم شعره جديدا مبتكرا ، وكانت طريقته مختلفة عن الطريقة المعتادة . وكان يكرر الكلمات لكي ينسق النغم مع المعنى، فلو عرف ناقدوه اللغة العربية لاكتشفوا بين أوزان شعره وأوزان الشعر العربي مشابهة كبيرة ،سواء من حيث الاستعارات والتشبيهات، أو من حيث قوة الأسلوب ، وتنوع المفردات . ويمتاز شعر الغزل الذي كتبه هذا المؤلف بالشهوانية الملتهبة ، أما شعره السياسي فهو صرخة نبي يخشى وقوع كارثة لايمكن درؤها . ومن العبث أن نتحدث عن الشاعر ، فمؤلفاته هي التي تشيد بذكره وسأورد هنا بعض نماذج منها . لكن الترجمة ، مهما كانت دقيقة ، ليست الا مجرد ظل لقوة الأصل ورصانته .

ابن الرجل السطاح

لأندريه آدي

أبي يعمل من الصباح الى الليل
يكد ويكدح ويتصبب جبينه عرقا في سبيل عمله
لايمكن أن يوجد رجل أفضل منه
في أي مكان . . في أي مكان .

رداء أبي بال وهو حافي القدمين
لكنه يبتاع لي أحسن الملابس

الشاعر اندريه آدي : أوزانه قريبة من الأوزان العربية

ويحدثني عن المستقبل الباهر
في عطفٍ وحنان .

أبي عبد رقيق للأغنياء ،
انهم يضايقون هذا المسكين العزيز ويؤلمونه
ولكن اذا جن الليل آب الى المنزل
حاملاً معه الأمل والخير والضوء .

ابي رجل قوي البنية فارع القامة
وهو يمنحنا العزة والصحة .
ولكن اذا كان الأمر يتعلق بشخصه
فهو لن يحني رأسه للمال .

ياله من رجل فقير ، كئيب الوجه !
لولا تفكيره في مصيري
لوضع حداً لهذه المهزلة
الدنيوية الكبيرة .

لولم يشأ أبي أن يفعل كل هذا
لما وُجد أي رجل غني .
ولأصبح جميع رفاقي
فقراء مثلي .

لوشاء أبي أن يقول كلمة واحدة
يالله ! لارتعد كثيرون فزعا
ولما استطاعوا ان يعيشوا فرحين
سعداء كما هم الآن .

ابي يعمل ويكافح
وليس هنالك من يضارعه قدرة ، عن قرب أو عن بعد .
إنه اقوى سلطة من الملك
أبي العزيز

في مركبة الخضر

أراد الله — كما فعل مع الخضر قبلا — أن ينتخب
من يحبهم ومن يؤذيهم كثيرا
فمنحهم قلوبا نارية سريعة الخفقات
مثل المركبات الملتهبة .

أخذت قبيلة الخضر هذه تطير في السماء
وتقف حيث يوجد الجليد الدائم
على قمة جبل هيمالايا المغطاة بالثلوج
فتتحطم مركباتها ، وتحدث قعقعة مزعجة .

أخذت رياح القدر تطاردها الى الأمام

بين الأرض والسماء في حزن وتشريد
وأخذت مركباتها تعدو
نحو أشكال دنيئة سافلة لاروعة فيها ولاجمال .

احترقت قلوبها وتجمدت عقولها كالجليد
فهزأ العالم بها واتخذها أضحوكة
لكن الشمس رثت لحالها فنشرت
ترابا من الماس على طريقها الجليدي

قريب الموت

أنا قريب الموت
أحب الزوال عند البداية
أحب القبلات التي تطبع
على جبهات الراحلين الى الأبد

أحب الورود التي تنخرها الآفات
أحب النساء الذابلات اللائي يتمايلن شهوة
أحب أيام الخريف
المتألقة أسفا وأسى

أحب نداء التحذير
الذي يفاجئنا في ساعات الشجن
أحب ظل الموت الهادىء
ظل الموت الطاهر الجبار

أحب وداع المسافرين الحزين
الذين يذرفون الدمـــع مدرارا
أحب المروج المغطـاة بالجليد الابيض
عندما يصفو السّحَر شتاء .

أحب الاستسلام العميق ، المُتعَب الكليل
أحب البـكاء الذى لاتُسكبُ فيه الدموع ؟
أحب الهدوءَ الساكن !
أحب استرخاء الحكيم والشاعر
والعاجز العليل .

أحب ذلك الذي تَملّكهُ اليأس وانتابه القنوط
فسقط في الميدان . أحب الذين كُتب عليهم التكاسل والتقاعس
أحب ضعيف الايمان ، والشرس العبوس
أحب الكون

أنا قريب الموت !
أحب الزوال عند البداية

أحب القُبُلات التي تطبع
على جبهات الراحلين الى الابد

رسالة الحجر

أي وطني العزيز الصغير ، ماأشدّ حنيني اليك
فكالحجر المرشوق في الفضاء الذى يَعودُ الى الارض،
سيعود أبناؤك إلى ظهرانيك

إنه يجول ببصره فيرى الابراج عن بعد
ويتعثر في الطريق ثم يخر أرضاً ليحثو في وجهه التراب
الذي استمد منه الحياة .

لكنّ تاقت نفسه الى الانفلات ، لكنه عجز
إنّ حميته الوطنية المجرية تنمو وتترعرع ثم تتأرجح
وأخيراً تعود فتفيضُ وتخْفُقُ كالقلب النابضِ

أي وطني العزيز ! إنني لك ! لك حتى في أشد أوقات الغضب
بل أنا مجريّ شقيٌّ بائس
حتى في ساعات الغدر والكوارث والاهواء

أي وطني الصغير الكليل

إني اصدمُ وجهي بوجهك
كالحجر المرشوق في الفضاء الذي يعود الى الارض مُكرَها كئيباً

وا أسفاه ! عبثاً عاهدْتُ نفسي آلاف المرّات
على العدولِ لكنني نقضْتُ العهد
نعم ! ونقَضْتُه الى النهاية

انتهت الحرب العالمية فحلت الكوارث بالمجر . إذْ مُزّقت أوصالها ، وحل بها اليأس ، فلم تستطع النهوض من كبوتها الا بعد سنوات .

كان الأدب خير معين للبلاد ، فاستلْهَم «جيجموند موريتز» الوحي من أرض المجر وطبيعتها الجذابة وهوائها العليل ، فخلق الشخصيات الريفية ، وبحث مشاكل الريف . وقصته « كن مخلصاً الى الموت » ، جديرة بان تترجم الى اللغة العربية .

ولم يكن الشاعر « سيب Szep » ثوريا ، بل كان شاعراً هادئاً في أفكاره وشعوره . وكانت الطبيعة ومناظرها الجميلة تحرك نفسه ، فتنهمر الدموع من مآقيه . وفيما يلي نموذج واحد من شعره :

من ذا يقدّر صوت الابكم الخافي
لو كان ينطق من يدري أغانيه
من يعلم الحسن في عين مغيبة
عين الضرير ونوراً في دياجيه

كم بسمة حلوة كانت منافذها
زجاج نافذة قد بات منكسراً
وأي سحب مضت في الليل سابحة
وأي حلم جميل صاحب الفقر

ثم حدثت الثورة الاجتماعية ، وقمعتها الحكومة بأساليبها الرجعية فحولت كفة الميزان الراجحة الى جانب الطبقات العاملة ، وطبقة الفقراء المعدمين ، المحرومين من ملكية الأرض . وقد أخذت طبقة كبار الملاك تتوجس شراً من تذمر المحرومين والمعدمين فاعتقدت أن الثورة الاجتماعية أصبحت قاب قوسين أو أدنى . وكان المعبر عن تلك الثورة شاعر شعبي هو « جوزيف آتيلا » . ولم يعش هذا الشاعر طويلا ، وكانت حياته مضطربة لاتجد الى الهدوء سبيلاً ، لقد رفع صوته عالياً في انغام شعرية شجية ، مطالبا بحقوق الطبقة العاملة فكسب المعركة في النهاية .

إن الامة المجرية الآن قد نبذت الفوارق الاجتماعية . فالجميع سواء ، يكونون أسرة واحدة ، لاتميز بين فلاحين وعمال وموظفين ومديرين ورجال فن وتلاميذ . أما تاريخ هذه النهضة الجديدة التي نهضتها المجر ، فستكتبه الاجيال القادمة . وأختم راجياً أن يجد المؤلفون العرب في تاريخ الأدب المجري ما يشجعهم على الكفاح بشجاعة واقدام في سبيل خلق أدب شعبي حر مشبع بروح الاخلاص . تلك هي أمنيتي فاذا تحققت لرضيت عن عملي هذا ولاعتقدت أنه لم يذهب سدى .

مطابع فتى العرب — دمشق

الثمن ١٠٠ ق.س.ل.

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

(---)
Pj7538
.G45xB3
Princeton University Library
32101 062241730